مجلة

الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

مجلة – علمية – محكمة

رقم الإيداع : (١٤٢٩/٣٣٠٢هـ بتاريخ ١٤٢٩/٦/٧هـ)
الرقم الدولي المعياري (ردمد): ٤١٥٥ - ١٦٥٨

كل بحث نشر في المجلة
يعبر عن رأي صاحبه

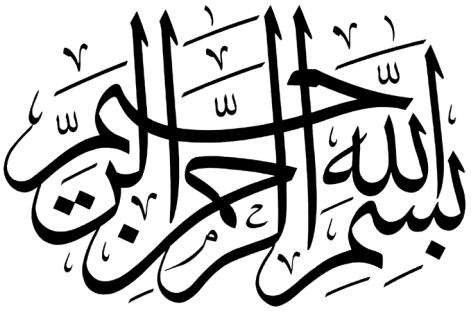
بسم الله الرحمن الرحيم

أسرة المجلة

المشرف العام على المجلة، رئيس مجلس إدارة الجمعية:

- د. أحمد بن محمد العضيب

رئيس التحرير، رئيس اللجنة العلمية في الجمعية

- أ. د. عبدالرحمن بن محمد العمار

أعضاء هيئة التحرير:

- أ. د. وليد بن إبراهيم قصّاب
- أ. د. عبدالرحمن بن عثمان الهليل
- أ. د. صالح بن ناصر الشويرخ
- أ. د. سليمان بن عبدالعزيز العيوني
- د. سعود بن عبدالله آل حسين
- د. سليمان بن سليمان العنقري

أمانة التحرير:

- د. علي بن موسى آل شبير
- د. أحمد بن محمد هزازي

طبيعة المجلة:

- مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية.
- مجلة علمية محكمة.
- تُعنى بعلوم اللغة العربية وآدابها.
- تنشر البحوث والدراسات العلمية المحكّمة.
- دورية نصف سنوية، تصدر بداية السنة الهجرية ومنتصفها.

شروط النشر:

- أن يكون البحث في علوم اللغة العربية وآدابها.
- أن يكون مكتوبًا على مقاس ورق (A4).
- أن يتّسم بالجِدّة والابتكار مع الأصالة وسلامة الاتجاه.
- أن يلتزم البحث بالسلامة اللغوية، والدقة في التوثيق والتخريج.
- أن يقدم الباحثُ نسختين حاسوبيتين من بحثه: إحداهما بصيغة (الوورد) متضمنة اسمه الرباعي وجهة عمله، والأخرى بصيغة (البي دي إف) مجردة من اسم الباحث، وملخّصاً باللغة العربية لا يزيد على صفحة.
- أن يلتزم الباحث بعدم نشر بحثه المقدم إلا بعد موافقة هيئة التحرير.
- أن يوقع الباحث إقراراً يتضمن امتلاكه لحقوق الملكية الفكرية للبحث كله.
- أن تكون الهوامش أسفل كل صفحة.
- ألا يكون البحثُ، كله أو بعضه- منشوراً، أو مقدّماً للنشر في مجلة أخرى.
- لا تلتزم المجلة بإعادة البحوث المنشورة وغير المنشورة إلى أصحابها.

المراسلات:

تكون المراسلات باسم:

رئيس تحرير المجلة العلمية للجمعية العلمية السعودية للغة العربية.

على عنوان الجمعية:

العنوان البريدي على الشبكة: arabic1429@gmail.com

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية

الرياض: 1432 – ص.ب. 5762 (الجمعية)

الهاتف: ٢٥٨٥٥٨٩ /٠١١ – الناسوخ: ٢٥٨٥٥٩٠ /٠١١

(للاستفسار عن الاشتراك في المجلة يمكن المراسلة عن طريق العنوان السابق).

بلاغة الخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم (١)

د. يوسف بن عبدالله العليوي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

(١) تقدم به للمجلة في تاريخ ١٤٣٨/٥/٤هـ، وقبل للنشر في تاريخ ١٤٣٨/٥/٢٢هـ.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. أما بعد،

فيحتل الخطاب الوعظي أهمية كبيرة وموقعًا متميزًا، حيث يتضمن أهم خطابين: القرآن الكريم، والسنة النبوية. كما تحفل به مناسبات شرعية متكررة كخطب الجمعة والعيدين وغيرها. فضلاً على الأوامر الإلهية والنبوية التي تحث على الوعظ والتواصي والتذكير بما يجب على الإنسان تجاه الخالق والخلق والنفس، ولقد كان النبي ﷺ يَتَخَوَّل أصحابه ﷺ بالموعظة[١].

وفي تاريخ المسلمين -من عصره الأول إلى عصرنا الحاضر- عناية بهذا الخطاب، ظهرت في صور متنوعة، منها: تخصص بعضهم بهذا النوع من الخطاب، فوجد من يسمون بالوُعّاظ والقُصّاص والـمُذَكّرين، واشتهر بعض العلماء بالوعظ كالحسن البصري (ت١١٠هـ)، وعرف به بعض الشعراء كأبي العتاهية (ت٢١١هـ). ومن مظاهر العناية بالوعظ تصنيف المؤلفات الوعظية التي تعظ قارئيها، أو تمد الوعاظ بما يعينهم في وعظهم من نصوص قرآنية أو نبوية أو قصصية أو شعرية أو نثرية، وممن اشتهر بهذا ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، وله عدة مؤلفات منها: التذكرة في الوعظ، وبحر الدموع، وبستان الواعظين. وفي عصرنا توسع هذا الخطاب وانتشر مع الوسائل الإعلامية المختلفة، وصار له في بعض البلدان جمعيات ومواقع مختصة بالوعظ والوعاظ.

واستهوى هذا النوع من الخطاب كثيرًا ممن لا فقه له فحدث فيه خلل كبير، ظهرت بوادره من عصر الصحابة ﷺ، مما اقتضى أن يقدم أهل العلم توجيهات للوعاظ فيما ينبغي عليهم مراعاته، فهذه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- تقول لابن أبي السائب واعظ أهل المدينة: قُصَّ على الناس في كل جمعة مرة، فإن أبيت فثنتين، فإن أبيت فثلاثًا؛ فلا تمل الناس هذا الكتاب، ولا ألفينَّك تأتي القوم -وهم في حديث من حديثهم- فتقطع عليهم حديثهم، ولكن اتركهم، فإذا جَرَّءوك عليه، وأمروك به، فحدثهم[٢].

وظهرت الكتابات التي توجه الوعاظ أو تنبه إلى أغلاطهم، منها: «كتاب القصاص والمذكرين» لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، و«الباعث على الخلاص من حوادث القصاص»

(١) أخرجه البخاري (ح ٧٠) ومسلم (ح ٢٨٢١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/٦).

لزين الدين العراقي (ت ٨٠٦ هـ) و«تحذير الخواص من أكاذيب القصاص» للسيوطي (ت٩١١هـ).

ولا تزال المؤلفات والمقالات تتوالى إلى عصرنا هذا لتجديد الخطاب الوعظي وتصحيح مساره في جوانب متنوعة.

ويأتي هذا البحث بعنوان «بلاغة الخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين ﷺ» منطلقًا من أهمية الوعظ، وليسهم أيضًا في التجديد والتصحيح للخطاب الوعظي في جانب مهم من جوانبه بل هو عموده، وهو البلاغة؛ لأنها هي التي تحمل التأثير من الواعظ إلى قلب المخاطَب، وإذا خلا الخطاب منها جاءت الموعظة باردة ضعيفة التأثير.

واخترت خطاب الخلفاء الراشدين -أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ- لأنهم في مقام القدوة والأسوة للأمة، وقد قال النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّين، تَمَسَّكوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[1]، ولم أجد من تناول بلاغة مواعظهم في بحث.

وقد جمعَت بعض المؤلفات قديمًا وحديثًا مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ ووصاياهم، ومنها: «الخطب والمواعظ» لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (ت٤٥٨هـ)، و«كنز العمال» للمتقي الهندي (ت٩٧٥هـ). والمؤلفات التي أرخت للخلفاء الراشدين ﷺ وترجمت لهم لا تخلو من ذكر أقوالهم وخطبهم، كتاريخ الطبري (ت٣١٠هـ) و«حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني (ت٤٣٠هـ) وغيرهما. ومن المؤلفات المعاصرة: «جمهرة خطب العرب»، و«جمهرة رسائل العرب»، وكلاهما لأحمد زكي صفوت، و«مواعظ الصحابة ﷺ» لصالح الشامي، و «وصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم» لعبدالرحمن الجميزي، وغيرها.

واعتمدت في عينة البحث على هذه الأربعة المعاصرة التي جمعت كثيرًا مما نقله المتقدمون، وربما رجعت إلى غيرها.

ويهدف البحث إلى التعرف على أهم الخصائص البلاغية في مواعظهم، ولذا نهج البحث منهجًا بلاغيًا وصفيًا، يتتبع الظواهر الأسلوبية، ويصفها، ويحللها، ويستشهد لها، ولا يقف عند كل أسلوب ورد في مواعظهم؛ لأن أساليب البلاغة ترد في كلام

(١) أخرجه أبو داود (ح٤٦٠٧)، والترمذي (ح٢٦٧٦)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١١٨/٣).

المتكلمين عامة، وإنما المقصود الوقوف على ما يميز خطابهم من خصائص ظاهرة، سواء أكانت خصائص موضوعية أم أسلوبية.

وجاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

أما التمهيد فتناول أربعة موضوعات: مفهوم الوَعْظ والموعظة، والموعظة في الخطاب الدعوي، والموعظة وأجناس الخطاب، ومشروعية البلاغة في الموعظة. وأما المبحث الأول فتناول: سياقات الخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين.

وأما المبحث الثاني فتناول الخصائص الموضوعية للخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين. وأما المبحث الثالث فتناول الخصائص الأسلوبية للخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين. وفي الخاتمة أهم النتائج والتوصيات.

وإني لأسأل الله أن يسددني فيه لصالح القول، وأن يكتب له القبول، والحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة

٤ جمادى الأولى ١٤٣٨هـ

التمهيد

مفهوم الوَعْظ والموعظة:

الوَعْظ أو العِظة أو الموعظة يدور معناها في معاجم اللغة على: النصح والتذكير بما يلين القلب ويرققه من ثواب وعقاب[١]. وهي بهذا المعنى في المواضع التي وردت فيها مادة «وعظ» في القرآن الكريم[٢].

وتُطلق على أمر الله ونهيه؛ ليكونا مقرونين بالوعظ، قال ابن القيم (ت٧٥١هـ) في معنى الموعظة: (هي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة)[٣].

ومن إطلاق الوعظ على الأمر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]، وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

ومن إطلاقه على النهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، وقوله: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وجاء مع الأمر والنهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وفي التعليل لإطلاق الوعظ على الأمر والنهي قال ابن باديس (ت١٣٥٩هـ): (لأن شأن الأمر والنهي أن يقترن بما يحمل على امتثاله من الترغيب والترهيب)[٤]، وقال الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ): (فإن قيل: يكثر في القرآن إطلاق الوعظ على الأوامر والنواهي... مع أن المعروف عند الناس: أن الوعظ يكون بالترغيب والترهيب ونحو ذلك، لا بالأمر والنهي. فالجواب: أن ضابط الوعظ: هو الكلام الذي تلين له القلوب، وأعظم ما تلين له قلوب العقلاء أوامر ربهم ونواهيه؛ فإنهم إذا سمعوا الأمر خافوا

(١) ينظر مادة (وعظ) في: العين (٢٢٨/٢)، وتهذيب اللغة (٩٣/٣)، والصحاح (١١٨١/٣)، ومقاييس اللغة (١٢٦/٦)، والمحكم (٣٣٣/٢)، ومفردات القرآن (ص٨٧٦).

(٢) وردت مادة «وعظ» بصيغها المختلفة (٢٥) مرة في (٢٤) آية: وردت مرة واحدة بصيغة الفعل الماضي «وَعَظ»، وثماني مرات للمضارع المبني للفاعل «أَعِظ، تَعِظ، يَعِظ»، وأربع مرات للمضارع المبني للمفعول « تُوْعَظ، يُوْعَظ»، ومرتين للأمر «عِظْ»، ومرة باسم الفاعل «واعظ»، وتسع مرات بالاسم «موعظة».

(٣) مفتاح دار السعادة (٤٧٥/١).

(٤) آثار ابن باديس (١٨٦/١).

من سخط الله في عدم امتثاله، وطمعوا فيما عند الله من الثواب في امتثاله. وإذا سمعوا النهي خافوا من سخط الله في عدم اجتنابه، وطمعوا فيما عنده من الثواب في اجتنابه؛ فحداهم حادي الخوف والطمع إلى الامتثال، فلانت قلوبهم للطاعة خوفًا وطمعًا)[١].

وتطلق «المَوْعِظة» على ما يُوعظ به من قول أَو غيره[٢]؛ لأن الوعظ يكون بالقول ويكون بغيره من فعل أو حال.

أما إطلاقها على المقال ففي مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وأما الحال ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦]، فأُطلقت «الموعظة» على العقوبة التي عوقب بها أصحاب السبت.

وقول لبيد بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]:

والمَاءُ والنِّيرانُ مِنْ آياتِهِ ... فِيهنَّ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ لَمْ يَجْهَلِ

وقول أبي العتاهية[٤]:

وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ ... فَأَنْتَ اليَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

وفي الحكمة: السعيد من وُعِظ بغيره[٥]، قال ابن عبدربه (ت٣٢٨هـ): (لا يعنون من وَعَظه غيره، ولكن من رأى العبر في غيره فاتعظ بها في نفسه)[٦].

الموعظة في الخطاب الدعوي:

ذكر الله جل جلاله «الموعظة الحسنة» سمة من سمات الخطاب الدعوي، فقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

والموعظة الحسنة في الآية بمعنى النصح والتذكير بالقول اللين المقرون بالترغيب والترهيب، قال السمعاني (ت٤٨٩هـ) عند تفسير هذه الآية: (الموعظة هي الدعاء إلى

(١) أضواء البيان (٤١٩/٣).
(٢) ينظر: المعجم الوسيط (١٠٤٣/٢).
(٣) ديوان لبيد بن ربيعة (ص٤٤).
(٤) ديوان أبي العتاهية (ص٤٩٢).
(٥) وردت عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما في صحيح مسلم (ح٢٦٤٥).
(٦) العقد الفريد (٨٢/٣).

الله بالترغيب والترهيب، وقيل: الموعظة الحسنة هي القول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعنيف)[١].

والمقصود -والله أعلم- أن يُدعى كل واحد بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فالداعية مأمور بملازمة الحكمة والموعظة الحسنة في دعوته، وإذا احتيج إلى الجدال فيجادل بالتي هي أحسن، ولذا حذف مفعول الأمر «ادع» ليعم كل مدعو، ولم تذكر المجادلة بالاسم فتعطف على الحكمة والموعظة، وإنما ذكرت بالفعل لتعطف على فعل الدعوة «ادع» مع تأخيرها عنها؛ ليفيد ذلك أن الدعوة مقصودة لذاتها وهي الأصل، وأما المجادلة فليست مقصودة لذاتها وإنما هي طارئة للحاجة، والغرض من الدعوة فعل المأمور وترك المنهي، ولا يلزم القصد إلى هذا الغرض في المجادلة، بل الغالب أن يقصد إلى إفحام المجادل[٢].

ولهذا تطلق «الموعظة» على الخطاب الدعوي؛ لأنه لا يخلو من الوعظ ترغيبًا وترهيبًا، وقد وُصف الأنبياء وخطابهم بالوعظ كما في قوله تعالى عن عاد أنهم قالوا لنبيهم هود عليه السلام: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]؛ فالوعظ من مهمات الأنبياء والدعاة إلى الله كما قال الله آمرًا النبي محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وقال عن لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٤].

وكان الوعظ من أحوال النبي ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يُذَكِّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكَّرتنا كل يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم، وإني أَتَخَوَّلكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلنا بها مخافة السَّآمة علينا[٣]، وعن حنظلة الأسدي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا فذكر النار[٤]، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا، بماء يدعى خُمًّا بين مكة والمدينة،

(١) تفسير القرآن (٣/٢١٠). وينظر عند تفسير هذه الآية: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، والبحر المحيط لأبي حيان، والتحرير والتنوير لابن عاشور.

(٢) ينظر عند تفسير هذه الآية: التفسير الكبير للفخر الرازي، وتفسير الألوسي، وتفسير ابن باديس.

(٣) أخرجه البخاري (ح٧٠)، ومسلم (ح٢٨٢١).

(٤) أخرجه مسلم (ح٢٧٥٠).

فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر[١]. وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، ثم انصرف، فوعظ الناس، وأمرهم بالصدقة[٢].

بل أسند الله جَلَّ جَلَالُهُ الوعظ إلى نفسه فقال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال واعظًا نبيه نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وقال: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

ووصف كلامه في القرآن الكريم بالموعظة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وكذا التوراة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، والإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

الموعظة وأجناس الخطاب:

الموعظة نوع من أنواع الخطاب، تحمله أجناس القول وتتضمنه، وليس جنسًا مغايرًا لها، فالموعظة قد تكون في خطبة أو رسالة أو قصيدة أو غير ذلك.

وقد يكون الخطاب كله موعظة، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا بموعظة[٣]، وفي حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب[٤].

والغالب في خطب الجمعة أنها قائمة على الوعظ؛ ولذا سميت موعظة، كما في حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هن كلمات يسيرات[٥].

(١) أخرجه مسلم (ح٢٤٠٨).

(٢) أخرجه البخاري: (١٤٦٢) ، ومسلم: (٨٨٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٠).

(٤) أخرجه أبو داود (ح٤٦٠٧)، والترمذي (ح٢٦٧٦)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١١٨/٣).

(٥) أخرجه أبو داود (ح١١٠٧).

وقد يكون الوعظ جزءًا من الخطاب، في أوله أو آخره أو في أثنائه، وهذا موجود في سور القرآن وخطب النبي ﷺ.

مشروعية البلاغة في الموعظة:

استحب أهل العلم بلاغة الموعظة لما لها من أثر بالغ في استمالة المدعوين إلى المأمور به واجتناب المنهي عنه، وقد قال الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ مِن الْبَيَانِ سِحْرًا» وورد هذا التشبيه في سياق الحديث عن خطاب دعوي، كما أخرج مسلم أن عمار بن ياسر رضي الله عنه خطب فأوجز وأبلغ، فلما نزل قيل له: يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تَنَفَّسْت. فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «إِنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ؛ فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِن الْبَيَانِ سِحْرًا»[(١)].

ومما ذكره أهل العلم في استحباب البلاغة قول الشافعي (ت٢٠٤هـ) في آداب الخطبة: (أحب أن يكون كلامه قصدًا بليغًا جامعًا)[(٢)]، وقال النووي (ت٦٧٦هـ): (يستحب كون الخطبة فصيحة، بليغة، مرتبة، مبينة، من غير تمطيط، ولا تقعير، ولا تكون ألفاظًا مبتذلة ملفقة، فإنها لا تقع في النفوس موقعًا كاملاً، ولا تكون وحشية؛ لأنه لا يحصل مقصودها، بل يختار ألفاظًا جزلة مفهمة)[(٣)]، وقال في فوائد رسالة النبي ﷺ إلى هرقل: (ومنها: استحباب البلاغة، والإيجاز، وتحري الألفاظ الجزلة في المكاتبة)[(٤)]، وقال ابن رجب (ت٧٩٥هـ) في شرح حديث العِرباض: «وَعَظَنا رسولُ الله ﷺ موعظة بليغة»: (البلاغة في الموعظة مستحسنة؛ لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، والبلاغة هي: التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها، وأفصحها، وأحلاها لدى الأسماع، وأوقعها في القلوب)[(٥)].

(١) أخرجه مسلم (ح٨٦٩). ومعنى تَنَفَّسْت: أطلت قليلاً، ومَئِنة: علامة، وينظر: شرح صحيح مسلم (١٥٨/٦).
(٢) الأم (٤٠٩/٢).
(٣) المجموع شرح المهذب (٤٠٠/٤).
(٤) شرح صحيح مسلم (١٠٨/١٢)، وينظر: عمدة القاري (١٠٠/١).
(٥) جامع العلوم والحكم (١١١/٢).

المبحث الأول
سياقات الخطاب

أولاً: أغراض الموعظة:

«الموعظة حياة» كما قيل[١]، فهي حياة للقلوب من الغفلة، وتذكير لها بما يقربها إلى الطاعة، ويباعدها عن المعصية، ويُروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (تَوَاعظوا وتَنَاهوا عن معصية ربكم؛ فإن الموعظة تنبيه للقلوب من سِنة الغفلة، وشفاء من داء الجَهالة، وفكاك من رِق الهَوى)[٢].

وذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ في القرآن الكريم أغراضًا للموعظة، منها:

١. تذكّر أمر الله ونهيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، والتذكر: التفهم والتعقل وعدم الغفلة عن أوامر الله ونواهيه مما يبعث على العمل بها.

٢. الامتثال لما أمر الله جَلَّ جَلَالُهُ به؛ لما في الموعظة من الترغيب إليه والتذكير بعظم ثوابه والترهيب من تركه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

٣. الانتهاء عما نهى الله جَلَّ جَلَالُهُ عنه؛ لما في الموعظة من الترهيب من فعله والتذكير بسوء عاقبته، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٤. تقوى الله، التي يكون معها الخوف من الله وخشيته، وهي: أن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل طاعته وترك معصيته، ويغلب استعمالها في مقام الحث على اجتناب السيئات، والتخويف من سوء عاقبتها. وفي هذا الغرض يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ١٦٤]. وحصول التقوى هو المقصد الأهم للموعظة، فبها يسارع العبد إلى فعل الخيرات واجتناب السيئات.

(١) نثر الدر في المحاضرات (٥/٥٤).

(٢) السابق (١/٢٨٣).

ومواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ لا تخرج عن هذه الأغراض التي تدور بين ترغيب في عمل الصالحات أو ترهيب من عمل السيئات، وسيأتي في الحديث عن الخصائص الموضوعية ذكر أهم الموضوعات التي رغبوا فيها أو رهبوا منها.

ثانيًا: أجناس الخطاب:

تنوعت أجناس الخطاب التي سيقت فيها مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ إلى: الخطبة، والرسالة، والوصية.

١- الخطبة:

حينما تكون الموعظة موجهة إلى الجمع الكثير بصورة مباشرة فلا يتأتى من أجناس القول إلا الخطبة، كما في خطبة الجمعة، وقد كان الخلفاء الراشدون ﷺ يتولونها بأنفسهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك.

وكانوا ﷺ يخطبون في مناسبات أخرى غير الجمعة، كخطبهم حين بيعتهم، أو ندب الناس إلى الجهاد والمشاركة في الفتوح، أو في الجيوش عند عقد الألوية وتسييرها، أو غيرها، ومن ذلك خطبة أبي بكر رضي الله عنه حين وفاة رسول الله ﷺ واضطراب الناس بشأن وفاته، قام خطيبًا فقال: (أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤])[(١)].

وكثيرًا ما تأتي الرواية بأن الخليفة خطب دون بيان لمقام الخطبة إن كانت جمعة أو غيرها[(٢)].

وقد يكون الغرض من الخطبة الوعظ، فتكون كلها موعظة، كما في هذه الخطبة لأبي بكر رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: (أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. ثم اعلموا -عباد الله- أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي. وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره؛ فصدقوا قوله، وانتصحوا كتابه، واستبصروا فيه ليوم

(١) أخرجه البخاري (ح٤٤٥٤).

(٢) جمهرة خطب العرب (١/٧٠، ٧١...).

الظلمة؛ فإنما خلقكم للعبادة...) وهكذا تمضي الخطبة في مواعظ متتالية إلى أن يختمها بقوله: (إن الله تبارك وتعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيرًا ولا يصرف عنه به شرًا، إلا بطاعته واتباع أمره. وإنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم)[١].

وقد تكون الموعظة بين يدي الغرض من الخطبة، كما في خطبة عمر رضي الله عنه بعد أن تولى الخلافة، فيما رواه الطبري (ت٣١٠هـ) عن عروة بن الزبير أن عمر رضي الله عنه خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكّر الناس بالله عز وجل واليوم الآخر، ثم قال... وذكر خطبته في شأن توليه الخلافة[٢].

وقد تكون بعد الغرض، كخطبة عثمان رضي الله عنه بعد ما بويع بالخلافة، قال: (أما بعد، فإني قد حُمِّلت وقد قَبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنه نبيه ﷺ ثلاثًا: اتباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسنَنْتم، وسنَّ سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكفَّ عنكم إلا فيما استوجبتم) ثم وعظ الناس فقال: (ألا وإن الدنيا خَضِرة قد شُهِّيَت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم؛ فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها)[٣].

٢- الرسالة:

لئن كانت الخطبة يخاطب بها المواجِه فإن الرسالة يخاطب بها غير المواجه؛ ولذا تكون مكتوبة إليه.

ومواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في رسائلهم هي وصايا مكتوبة. ومنها ما خوطب بها الواحد، وهو الغالب. ومنها ما خوطب بها الجمع، كرسالة أبي بكر رضي الله عنه إلى القبائل بعد ارتداد كثير منها عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ قال فيها: (من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه... فمن كان إنما يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله له بالمرصاد، حيّ قيّوم لا يموت، ولا تأخذه سِنَة ولا نوم، حافظ لأمره، منتقم من عدوه، يجزيه. وإني أوصيكم بتقوى الله، وحظّكم ونصيبكم من الله، وما جاءكم به نبيكم ﷺ، وأن تهتدوا بهداه، وأن تعتصموا بدين الله،

(١) الخطب والمواعظ (ص١٨٧)، وجمهرة خطب العرب (٧٢/١) ومواعظ الصحابة (ص٥٧)، ووصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم (ص٥٠).

(٢) تاريخ الطبري (٢١٤/٤)، وجمهرة خطب العرب (٨٠/١).

(٣) تاريخ الطبري (٤٢٢/٤)، وجمهرة خطب العرب (١٠١/١)، ومواعظ الصحابة (ص١٠٩).

فإن كل من لم يهده الله ضال، وكل من لم يعافه مبتلى، وكل من لم يُعِنه الله مخذول، فمن هداه الله كان مهتديًا، ومن أضله كان ضالاً...)[١].

ومن الرسائل إلى الأفراد رسالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه وفيها: (أما بعد، فإنما مثل الدنيا مثل الحية ليّن مسّها، يقتل سمها، فأعرِض عمّا يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضَعْ عنك همومها لما أيقنت من فراقها، وكن أَسَرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها؛ فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخصه عنه مكروه، والسلام)[٢].

وقد تكون الرسالة كلها موعظة، كهذه الرسالة إلى سلمان الفارسي، وقد تكون الموعظة جزءًا منها، كبعض رسائلهم إلى ولاتهم، وسيأتي شيء منها.

٣- الوصية:

والمقصود بها هنا الوصية الشفهية التي يعظ بها الخلفاء الراشدون ﷺ فردًا أو أفرادًا معدودين، من غير أن تأخذ حكم الخطبة.

وقد تأتي ابتداء، كوصية أبي بكر رضي الله عنه عند وفاته لعمر رضي الله عنه، قال فيها: (يا عمر، إنّ وُلِّيت على الناس فاتق الله، واعلم أن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل...)[٣].

وقد تأتي عن طلب، كما روى سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه أتى أبا بكر الصديق رضي الله عنه يعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال له: يا خليفة رسول الله، أوصني؟، قال أبو بكر: (إن الله عز وجل فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذوا منها إلا بلاغكم، وإن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله، فلا تخفرن الله عز وجل في ذمته؛ فيكبك في النار على وجهك)[٤]. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال عمر لعلي: عظني يا أبا الحسن. قال: (لا تجعل يقينك شكًا، ولا علمك جهلاً، ولا ظنك حقًا، واعلم أنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، وقسمت فسويت، ولبست فأبليت)[٥].

ثالثًا: المخاطَبون بالموعظة:

تنوع المخاطَبون بمواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ إلى ما يأتي:

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٥٠)، وجمهرة رسائل العرب (١/١٠٩).
(٢) الجامع لشعب الإيمان (١٣/١٧٩، ح ١٠١٤٢).
(٣) الخطب والمواعظ (ص١٩٨)، ومواعظ الصحابة (ص٤٥)، ووصايا الأنبياء والسلف (ص٥٠).
(٤) مواعظ الصحابة (ص٥٨)، ووصايا الأنبياء والسلف (ص٥٤).
(٥) وصايا الأنبياء والسلف (ص٧٧).

١- جمهور الناس:

ويعظ الخلفاء الراشدون هؤلاء المخاطَبين من خلال الخطب، كما روى البيهقي أن آخر خطبة خطبها عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جماعة قال فيها: (إنَّ الله إنَّما أعطاكم الدُّنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إنَّ الدُّنيا تفنى، والآخرة تبقى، فلا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنَّكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإنَّ الدُّنيا منقطعة، وإنَّ المصير إلى الله. اتَّقوا الله فإنَّ تقواه جُنَّة من بأسه، ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغِيَر، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزابًا ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ إلى آخر الآيتين [آل عمران: ١٠٣-١٠٤][(١)]. وعن أبي عبدالرحمن السلمي قال: خطب علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالكوفة فقال: (يا أيها الناس، إن أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل، واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيضل عن الحق، ألا إن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل)[(٢)].

وقد يحتاجون إلى مخاطبتهم بالرسائل، فيضمنونها شيئًا من الموعظة، كما سبق ذكر أمثلة لها في الحديث عن الرسائل.

٢- الولاة:

يعظ الخلفاء الراشدون ولاتهم سواء حين توليتهم إياهم، أم بعدها، مشافهة أم كتابة، وقد تأتي الموعظة في بدء رسائلهم إليهم، وقد تختم بها.

ومن مواعظهم: قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعث عمرو بن العاص والوليد بن عقبة على الصدقة، فأوصى كل واحد منهما بوصية واحدة: (اتق الله في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله. إنك في سبيل من سبل الله، لا يسعك فيه الإدْهان والتفريط والغفلة عمّا فيه قِوام دينكم، وعصمة أمركم، فلا تن ولا تفتر)[(٣)].

وأرسل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتابًا يوليه على جند خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدأه واعظًا، فقال: (أوصيك بتقوى الله الذي يبقى، ويفنى ما سواه، الذي هدانا

(١) الجامع لشعب الإيمان (١٣/١٧١، ح ١٠١٢)، وجمهرة خطب العرب (١/١٠٤)، ومواعظ الصحابة (ص١٠٦).
(٢) الجامع لشعب الإيمان (١٣/١٧٣، ح ١٠١٣٠)، ومواعظ الصحابة (ص١٢٣).
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٠)، وجمهرة خطب العرب (١/٧٥).

من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد...) وختم واعظًا فقال: (وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فغمِّض بصرك عن الدنيا، وأَلْه قلبك عنها، وإياك أن تُهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم)[١].

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا بعث سرية ولّى أمرها رجلاً فأوصاه، فقال: (أوصيك بتقوى الله، الذي لا بد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة، وعليك بالذي يقربك إلى الله؛ فإن فيها عند الله خلفًا من الدنيا)[٢].

٣- الأولاد:

وصايا الآباء للأولاد ظاهرة في تاريخ العرب منذ العصر الجاهلي، وقد ذكر الله جل جلاله في كتابه العزيز وصايا آباء لأبنائهم، كوصية إبراهيم ويعقوب -عليهما السلام- لبنيهم في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، ووصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ الآيات [لقمان: ١٣-١٩].

ومن مواعظ الخلفاء الراشدين لأولادهم ما روته عائشة -رضي الله عنها- قالت: لبست مرة درعًا لي جديدًا، فجعلت أنظر إليه وأُعجبت به، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما تنظرين؟ إن الله ليس بناظر إليك. قلت: ومم ذاك؟! قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه جل جلاله، حتى يفارق تلك الزينة؟ قالت: فنزعته فتصدقت به. فقال أبو بكر: عسى ذلك أن يكفر عنك[٣].

ومن ذلك قول عمر لابنه عبدالله -رضي الله عنهما- في رسالة كتبها إليه: (إني أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده. واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك...)[٤]. ودخل عمر على ابنه عبد الله -رضي الله عنهما- وإذا عندهم لحم، فقال: ما هذا اللحم؟! فقال: اشتهيته. قال: أو كلما اشتهيت شيئًا أكلته؟ كفى بالمرء سَرَفًا أن يأكل كلّ ما اشتهاه[٥].

ومن ذلك قول علي رضي الله عنه لابنه الحسن رضي الله عنه: (أي بُني، لا تخلفنّ وراءك شيئًا من

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٣٤)، وجمهرة رسائل العرب (١/١٤٥).
(٢) وصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم (ص٧٧).
(٣) مواعظ الصحابة (ص٤٦).
(٤) الخطب والمواعظ (ص٢٠٤)، ومواعظ الصحابة (ص٦١)، ووصايا الأنبياء والسلف (ص٦٣).
(٥) مواعظ الصحابة (ص٨٣).

الدنيا؛ فإنك تخلفه لأحد رجلين: إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به، وإما رجل عمل فيه بمعصيته فكنت عونًا له على ذلك. وليس أحد هذين بحقيق أن تؤثره على نفسك)[١]. ويروى أن عليًّا رضي الله عنه بعد طعنه دعا ابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهما فقال لهما: (أوصيكما بتقوى الله تعالى، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها؛ فإنكما عنها راحلان. افعلا الخير، وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم عونًا) ثم دعا ابنه محمدًا، وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك؟ قال: بلى. قال: فإني أوصيك به[٢].

٤- الأصحاب:

يوصي الخلفاء الراشدون أصحابهم المقربين ويعظونهم، وقد يكون ذلك مبادرة منهم أو عن طلب من أصحابهم، ومن ذلك ما رواه عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: دخلت على أبي بكر رضي الله عنه في مرضه الذي توفي فيه، فسلمت عليه فقال: (رأيت الدنيا قد أقبلت ولمّا تقبل، وهي جائية، وستتخذون ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألمون ضَجائع الصُّوف الأذَري، كأن أحدكم على حَسَك السَّعْدان، ووالله لأن يُقدَّم أحدكم فيُضرَب عنقه -في غير حَدّ- خير له من أن يسبح في غَمْرة الدنيا)[٣].

وأوصى عمر رضي الله عنه أصحابه فقال: (أوصيكم بالله، إذا بالله خلوتم)[٤]. ويروى أن جابر بن عبدالله رضي الله عنه مرّ ومعه لحم على عمر رضي الله عنه فقال: ما هذا يا جابر؟ قال: هذا لحم اشتريته، اشتهيته. قال: أو كلما اشتهيت شيئًا اشتريته؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؟[٥].

ووعظ علي رضي الله عنه نوفًا البِكالي، فقال: (يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطًا، وترابها فراشًا، وماءها طيبًا، والقرآن والدعاء دثارًا وشعارًا...)[٦].

(١) السابق (ص١٧٠).

(٢) وصايا الأنبياء والسلف (ص٧٥).

(٣) مواعظ الصحابة (ص١٧٠). والصوف الأذري: منسوب إلى أذربيجان. وحسك السعدان: نبت خشن له شوك. وينظر: لسان العرب (١٤/ ٢٨٦ مادة: ذرا، و٣/٢١٥ مادة: حسك).

(٤) وصايا الأنبياء والسلف (ص٦٥).

(٥) مواعظ الصحابة (ص٨٣).

(٦) السابق (ص١٢٨).

المبحث الثاني
الخصائص الموضوعية

أولاً: تنوع الموضوعات:

تنوعت الموضوعات في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، والغالب أن الموعظة في المقام الواحد تعدد فيها الموضوعات، ويقل أن تقتصر على موضوع واحد، كخطبة عمر رضي الله عنه في الحث على الشكر[(١)]، ورسالة عثمان رضي الله عنه إلى الناس في السمع والطاعة والتحذير من الفرقة والاختلاف[(٢)]، وموعظة علي رضي الله عنه في التذكير بالموت وما بعده[(٣)].

ومما تضمنته مواعظهم: الأمر بتقوى الله، والحث على عبوديته والعمل الصالح، والإخلاص لله، وخشيته، والتمسك بالقرآن، ولزوم السنة، والتذكير بحدود الله وأحكامه، واجتناب المعاصي، والترهيب من عاقبتها، والترغيب في الاستغفار، والزهد في الدنيا والتحذير من الاغترار بها، ومن طول الأمل، ومن اتباع الهوى، والتذكير بالآخرة وبالموت والاعتبار بمن مات من السابقين والأقربين، والترغيب في طهارة القلب، ومحاسبة النفس، وفي شكر الله، والصبر، والعلم، والإنفاق في سبيل الله، والتحذير من الشح، والترغيب في الصدق والتحذير من الكذب، والحث على التواضع، والتحذير من الكبر والفخر، والحث على العدل والترهيب من الظلم، ومن الغلو، والحث على السمع والطاعة لولي الأمر بالمعروف، ولزوم جماعة المسلمين، والأخوة الإسلامية ونبذ ما يفصم عراها من التقاطع والتدابر والتباغض والتحاسد، والتحذير من التفرق والتحزب والاختلاف، والأمر بستر النساء. وغيرها من الموضوعات والوصايا التي جاءت حسب ما يقتضيه المقام[(٤)].

وأقف هنا عند موضوعين تكررا كثيرًا حتى صارا ظاهرتين في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ أيّا كان مقام الخِطاب والمخاطَب، وهما: التوصية بالتقوى، والتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا.

أما «التوصية بالتقوى» فيتكرر الوعظ بها كثيرًا، ليس في خطاب الخلفاء الراشدين، بل هي ظاهرة في القرآن الكريم والسنة النبوية ومواعظ الصحابة وغيرهم، حتى صارت سمة موضوعية مقترنة بالخطاب الوعظي. وما زال الخطباء والوعاظ

(١) تاريخ الطبري (٢١٦/٤)، وجمهرة خطب العرب (٨٣/١-٨٥).

(٢) تاريخ دمشق (٣١٦/٣٩)، ووصايا الأنبياء والسلف (ص٦١) ونسبها إلى عمر رضي الله عنه، وإنما هي لعثمان رضي الله عنه.

(٣) وصايا الأنبياء والسلف (ص٧٨).

(٤) ينظر: مواعظ الصحابة (٤٤-١٧٠)، ووصايا الأنبياء والسلف (٤٧-٥٤، ٦٠-٦٥، ٧٥-٧٩).

يجعلون الأمر بالتقوى مقدمة لمواعظهم، أو خاتمة لها، كما هو منهج القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣]، وقوله: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]، وقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وهذه ظاهرة معلومة عند أهل العلم والوعظ، وقد قال الله سبحانه في الوصية بالتقوى للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وتأتي التوصية بها في مواعظ الخلفاء الراشدين أول الخطاب، وقد تكون في آخره، أو في أثنائه، وفي المواعظ المذكورة عنهم سابقًا ما يدل على ذلك[١].

وقد تأتي بأسلوب الأمر: (يا عمر، إنْ وُلِّيت على الناس فاتق الله).

وقد تأتي بأسلوب الخبر، الذي يفيد الحث والأمر: (أوصيك بتقوى الله الذي يبقى، ويفنى ما سواه) (أوصيكما بتقوى الله تعالى). وقد يصحبه تأكيد يشعر بمزيد الشفقة في الموعظة: (إني أوصيكم بتقوى الله) (إني أوصيك بتقوى الله).

وقد يأتي بعد الأمر بها ترغيب فيها وبيان لثمراتها: (اتق الله في السر والعلانية؛ فإنه من يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله) (اتَّقوا الله؛ فإنَّ تقواه جُنَّة من بأسه، ووسيلة عنده).

وقد تتكرر التوصية بها في السياق الواحد؛ تذكيرًا بها وتأكيدًا لأهميتها، كقول عمر رضي الله عنه لابنه: (إني أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده. واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك...)[٢]، وقول علي رضي الله عنه: (أوصيكم -عباد الله- بتقوى الله... فاتقوا الله عباد الله... عباد الله، اتقوا الله تقية من وَجِل وحَذِر...)[٣].

---

(١) ينظر: جمهرة خطب العرب (١/٧١،٧٢، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٩٣) وجمهرة رسائل العرب (١/١١٠، ١١١، ١١٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٨١، ٢١٠، ٢١٩، ٢٢١...).

(٢) سبق توثيق هذه النصوص.

(٣) وصايا الأنبياء والسلف (ص٧٨).

ومن المواعظ المؤثرة في الحث على التقوى قول علي رضي الله عنه وقد خاطب أهل القبور، ثم التفت إلى صاحبه كُميل بن زياد، فقال: (يا كميل، لو أُذن لهم في الجواب لقالوا: إن خير الزاد التقوى)[1].

وأما التذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا فهو كثير في مواعظ الخلفاء رضي الله عنهم، وهو ظاهر أيضًا في الخطاب القرآني، حتى كثرت المشاهد التي تصور اليوم الآخر، وتعددت أسماؤه، وسميت بعض السور بها أو بأسماء أحواله ومشاهده.

وربط القرآن الكريم بين الاستجابة للوعظ والإيمان باليوم الآخر، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

وعدم الإيمان باليوم الآخر مانع من قبول الموعظة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وهذا يدل على أن التذكير باليوم الآخر له أثر في الاستجابة للموعظة والامتثال للأمر بالطاعة أو النهي عن المعصية. وكلما كان المرء أقوى إيمانًا به وأكثر تذكرًا له كان أحسن استجابة، بخلاف من لا يؤمن به أو يغفل عنه، وقد قال الله جل جلاله في المقابلة بين المبادرين إلى الجهاد والقاعدين عنه: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥]. وقال في أثر الإيمان باليوم الآخر على العمل الصالح: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

ويقترن كثيرًا باليوم الآخر التزهيد في الدنيا؛ حتى لا يركن العبد إليها وينشغل عن الآخرة، فيقعد عن الصالحات، ويرتكب الموبقات، ولذا يكثر التقابل في القرآن الكريم

(١) كنز العمال (٦٩٧/٣، ح٨٤٩٥)، ومواعظ الصحابة (ص١٢١).

بين التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، ومما ورد في ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

والاغترار بالدنيا والانشغال بها وبلهوها يقسي القلب ويحول عن قبول الموعظة، كما قال ﷻ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعلى هذا النهج جاءت كثير من مواعظ الخلفاء فيها تذكير باليوم الآخر وتزهيد في الحياة الدنيا.

وجاء الحديث عن ذلك بصور شتى، منها: التذكير بالموت وبهلاك من سبق مهما أوتوا من قوة ومال، والإخبار عن الدنيا بصفاتها التي تزهد فيها، ككونها فانية، ومدبرة، والأمر بالتقلل من الدنيا، والنهي عن الانغماس فيها، والأمر بمحاسبة النفس في الدنيا قبل حساب الآخرة، والحث على المبادرة في عمل الآخرة، وفيما سبق من خطبهم ورسائلهم ووصاياهم ما يشهد لهذا، ومن مواعظهم أيضًا: قول عمر رضي الله عنه: (إنك لم تنل عمل الآخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا)[١]، وقوله: (إن خيرتم بين أمرين: أحدهما للدنيا، والآخر للآخرة، فاختاروا أمر الآخرة على أمر الدنيا؛ فإن الدنيا تفنى، والآخرة تبقى)[٢]، وقوله: (أرد الله ولا ترد الدنيا)[٣]، وقوله: (التؤدة في كل شيء خير إلا ما كان في أمر الآخرة)[٤]. وقول عثمان رضي الله عنه: (ابن آدم، اعلم أن ملك الموت الذي وكل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت في الدنيا، وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك؛ فخذ حذرك واستعد له...)[٥]، وقوله: (ألا وإن الدنيا طويت على الغرور... ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة)[٦].

وقد تأتي الخطبة كلها لهذا الموضوع، كخطبة علي رضي الله عنه التي ابتدأها -بعد الحمد

(١) مواعظ الصحابة (ص٩٢).
(٢) السابق (ص٩٨).
(٣) تاريخ الطبري (٥٩٤/٣)، ومواعظ الصحابة (ص٩٧).
(٤) مواعظ الصحابة (ص٨٨).
(٥) السابق (ص١٠٦).
(٦) السابق (ص١٣٣-١٣٥).

والثناء على الله ﷻ- بقوله: (اعلموا أنكم ميتون، ومبعوثون من بعد الموت، وموقفون على أعمالكم، ومجزيون بها؛ فلا تغرنكم الحياة الدنيا...) وتمضي الخطبة إلى آخرها تذكيرًا بالآخرة وتزهيدًا في الدنيا وحثًّا على الاستعداد ليوم المعاد[١].

ويكثر في هذا الموضوع أساليب التشبيه والمجاز؛ لتصوير الدنيا بما يزهد فيها، وستأتي أمثلة لها في الحديث عن أساليب البيان.

ثانيًا: مراعاة مقتضى الحال:

البلاغة تكمن في مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وقد قالت العرب: لكل مقام مقال[٢]. والأحوال هي الظروف التي تحيط بالخطاب وتؤثر فيه، من حال المخاطَب والمتكلم والغرض والزمان والمكان وغيرها[٣].

ومراعاة الحال يكون من جهة المعاني ومن جهة الأساليب ونظم الكلام؛ فإذا أراد المتكلم والواعظ أن يكون بليغًا في كلامه مؤثرًا في خطابه فليراع مقام الكلام وأحوال الخطاب في اختيار ألفاظه وأساليبه وموضوعاته، فقد نقل الجاحظ (ت٢٥٥هـ) عن بشر بن المعتمر (ت٢١٠هـ) أنه قال في صحيفته: (إنما مَدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقامٍ من المقال... وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات)[٤].

ومراعاة مقتضى الحال في الدعوة إلى الله من الحكمة والموعظة الحسنة، التي أمر الله بها في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد راعى الخلفاء الراشدون ﷺ في تخير موضوعاتهم في مواعظهم ما يناسب مقام الخطاب وحال المخاطَب، ومن ذلك:

١- وعظ كلٍّ بما يناسبه:

يختار الخلفاء الراشدون ﷺ الوصايا التي تناسب المخاطَب بالوعظ، فالولاة مثلاً يوصَون بأن يكونوا قدوة لرعاياهم؛ لأنهم في مقام القدوة لهم. كما تأتي الموعظة لهم

(١) السابق (ص١٠٩).

(٢) ينظر: خاص الخاص (١١٩).

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ١٢٢/١، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٤٠٢/١، ورعاية حال المخاطب: ١٧.

(٤) البيان والتبيين (١٣٦/١، ١٣٨).

بالتحذير من الكبر، والحث على التواضع؛ لأن الولاة في مقام رفعة في المنصب على الناس فلا يُؤمن أن يتسلل الكبر إلى قلوبهم. كما تأتي الموعظة بالزهد في الدنيا والتحذير من الاغترار بها؛ لأن الولاة في حال قد تقبل عليهم فيها الدنيا بجاهها وأموالها، فيحتاجون إلى مثل هذه الموعظة. كما يوصونهم بإسعاد الرعية والتأليف بينهم، ويحذرونهم من إشقائهم وغشهم، ويحثونهم على أن يؤدوا للرعية حقوقهم ويأخذوا منهم ما يجب عليهم. وهذه أمور مما ينبغي أن يكون عليه الولاة. فضلاً عن تذكيرهم بتقوى الله ﷻ وخشيته، ولزوم سنة النبي ﷺ، والتقرب إلى الله بالعمل الصالح والحذر من التفريط والغفلة.

وسبق في الحديث عن المخاطَبين بالموعظة ذكر بعض مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ لولاتهم، ومن المواعظ الجامعة المناسبة للولاة -مع إيجازها- ما كتبه عمر إلى أبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما- قال: (أما بعد، إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، وإن أشقى الرعاة عند الله من شقيت به رعيته، وإياك أن ترتع فيرتع عمّالك،فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة: نظرت إلى خضرة من الأرض، فرتعت فيها، تبتغي بذلك السِّمَن، وإنما حتفها في سمنها، وعليك السلام)[1].

ومن مراعاة حال المخاطَب موعظة علي رضي الله عنه الناس في مقبرة، حيث شيَّع جنازة، فلما وضعت في لحدها عَجّ أهلها وبكوا، فقال: ما تبكون؟ أما والله لو عاينوا ما عاين ميتهم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتهم... ثم قام فقال: (أوصيكم عباد الله بتقوى الله، الذي ضرب لكم الأمثال، ووقّت لكم الآجال، وجعل لكم أسماعًا تعي ما عناها، وأبصارًا لتجلو عن غشاها، وأفئدة تفهم ما دهاها... فاتقوا الله عباد الله، وجدّوا في الطلب، وبادروا بالعمل مقطِّع النَّهمات، وهادم اللذات، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها...)[2] إلى آخر ما ذكره من تذكير بيوم القيامة وأهواله وأحواله، والجنة وثوابها، والنار وعذابها، وما يجب من المبادرة إلى النجاة بصالح الطاعات. وهذا كله مما يناسب حال المخاطبين ومكانهم.

وقد يستشرف الخليفة في المخاطَب حالاً مستقبلة فيعظه بما تقتضيه تلك الحال، ومن ذلك موعظة أبي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه إذا تولّى الخلافة، وسبقت في الوصية من أجناس الخطاب. وخطب رضي الله عنه الناس يومًا مستشرفًا فتح الشام، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (إنه ستفتح لكم الشام، فتأتون أرضًا رفيعة حيث تُمَتعون فيها من الخبز والزيت، وستبنى لكم مساجد، فإياكم أن يعلم الله أنكم إنما تأتونها تلهيًا، إنما بنيت للذكر)[3].

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٩٤/٧، ح٣٤٤٨)، وجمهرة رسائل العرب (٢٢٣/١).

(٢) وصايا الأنبياء والسلف (ص٧٨).

(٣) الزهد، لأحمد بن حنبل (ص٩٣).

٢- مراعاة ما يناسب الغرض:

يختار الخلفاء رضي الله عنهم الموضوعات المناسبة للغرض من الخطاب، ففي حال الترغيب في الجهاد يذكّر الخطاب بثواب الجهاد وموعود الله للمجاهدين، وإظهار الله للدين، وإعزازه لمن ينصره، والحث على الإخلاص لله، واحتساب الأجر منه. ومن أمثلته ما كتبه أبو بكر رضي الله عنه إلى أهل اليمن يحضهم على جهاد الروم في الشام، قال: (أما بعد: فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافًا وثقالاً، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والجهاد فريضة مفروضة، والثواب عند الله عظيم. وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وقد حسنت في ذلك نيتهم، وعظمت حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه، ولتحسن نيتكم فيه...)[(١)].

وفي خطب البيعة بالخلافة تأتي الموعظة بتقوى الله والتذكير به سبحانه، وباليوم الآخر، والزهد في الدنيا، والتحذير من الغرور بها، وهذا يناسب المقام؛ لأن تنصيب الخليفة وبيعته حال من أحوال الدنيا، والناس ينظرون إليها على أنها رفعة دنيوية، فلعلهم أرادوا تذكير الناس وأنفسهم بأن الخلافة ليست مقصودة لذاتها، وأن الخليفة نظره إلى الآخرة أكثر من نظره إلى الدنيا.

٣- الموعظة بما يقتضيه واجب الوقت:

وهذا من منهج القرآن الكريم الذي نزل منجمًا مراعاة لمصالح العباد وأحوال الرسالة والدعوة، كما هو منهج النبي ﷺ الذي لا يؤخر البيان عن وقت الحاجة.

وقد يقع للخلفاء الراشدين ما يقتضي الإنكار وتصحيح الأخطاء فتأتي الموعظة مناسبة للحال، كموعظة أبي بكر رضي الله عنه حينما اختلط على الناس أمر وفاة النبي ﷺ، فقام فيهم خطيبًا، ومما قاله: (من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قال عمر رضي الله عنه: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها[(٢)].

ولمّا التبس على الناس مفهوم النهي عن المنكر، قام رضي الله عنه خطيبًا، فحمد الله جل جلاله

(١) جمهرة رسائل العرب (١/١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح٤٤٥٤).

وأثنى عليه، ثم قال: (يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ النَّاسَ إذا رَأَوا المُنْكَرَ ولا يُغَيِّروه أَوشَكَ اللهُ أنْ يَعُمَّهم بِعِقابِه[١]).

ومن ذلك مواعظ عثمان رضي الله عنه في لزوم الجماعة، والسمع والطاعة، وترك التفرق والاختلاف؛ لمّا بُغي عليه ظلمًا وعدوانًا.

ثالثًا: شمول الموعظة لأنواع الخطاب:

لم تقف مواعظ الخلفاء الراشدين عند نوع من أنواع الخطاب أو المخاطَبين، فتجاوزت خطب الجمعة التي يغلب عليها الموعظة، إلى الخطابات السياسية والإدارية والعسكرية الموجهة إلى الولاة والقادة والسفراء، فتُضمن موعظة في بدئها أو ختامها. وسبق ذكر أمثلة على ذلك في الحديث عن أنواع المخاطبين.

وهذا منهج نبوي كما روى بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «كان إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا». ثم ذكر ما يوصيهم به من الإخلاص لله في الجهاد، وبما يجب عليهم من أحكام الحرب: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا...» الحديث[٢]. وحينما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن أوصاه، وكان مما وعظه في ختام الوصية: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[٣]. وكتب ﷺ إلى هرقل رسالة ومما جاء فيها من ترغيب وترهيب: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ...»[٤].

المبحث الثالث

الخصائص الأسلوبية

كثير من الأساليب البلاغية سواء كانت تركيبية أم تصويرية أم بديعية موجودة في مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ولكنني سأقتصر هنا على ذكر أهم الأساليب التي شاعت في مواعظهم، وأرى أنها تعد خصائص أسلوبية للخطاب الوعظي عندهم.

ومن خلال استقرائي لعينة البحث لحظت أن أهم الأساليب الظاهرة ما يأتي:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٦٥، ١٧٥، ح١ و١٦) وصححه أحمد شاكر في تحقيقه له.

(٢) أخرجه مسلم (ح١٧٣١).

(٣) أخرجه البخاري (ح١٤٩٦) ، ومسلم (ح١٩).

(٤) أخرجه البخاري (ح٧ و٢٩٤١ و٤٥٥٣) ، ومسلم (ح١٧٧٣).

أولاً: الجمل الخبرية:

تأتي الجملة الخبرية في الأصل لإفادة المخاطَب إثبات أمر لآخر أو نفيه عنه[١].

وتشيع الجمل الخبرية في مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم مقصودًا بها الترغيب والترهيب؛ لتسهم في حمل المخاطَب على الامتثال للمأمور والانتهاء عن المنهي.

وهذه الجمل -بما تحمله من ترغيب وترهيب- هي التي تضفي على الأمر والنهي سمة الوعظ، ولولاها لكانت الأوامر والنواهي مجرد وصايا لا تحمل روح الموعظة، فالأمر المجرد بالإنفاق: أنفق على المسكين، ليس كالأمر المقرون بالترغيب: أنفق فإن الله يخلف ما أنفقت ويعظم لك أجره.

وقد تأتي هذه الجمل الخبرية غير مقرونة بأمر أو نهي، لكن يراد بها الحث على الفعل أو الترك، كقول أبي بكر رضي الله عنه: (إن الله تبارك وتعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيرًا، ولا يصرف عنه به شرًا، إلا بطاعته واتباع أمره، وإنه لا خير بخير بعده النار، ولا شرّ بشرّ بعده الجنة)[٢]، وقول عمر رضي الله عنه: (إن الدنيا خضرة حلوة، فمن أخذها بحقها كان قَمِنًا أن يبارك له فيها، ومن أخذها بغير ذلك كان كالآكل الذي لا يشبع)[٣].

وقد تأتي الجمل الخبرية بين يدي الأمر والنهي تمهيدًا لهما، كقول أبي بكر رضي الله عنه: (هذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره؛ فصدقوا قوله، وانتصحوا كتابه، واستبصروا فيه ليوم الظلمة)[٤]، وقول عثمان رضي الله عنه: (إنَّ الدُّنيا تفنى، والآخرة تبقى، فلا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنَّكم عن الباقية)[٥]، وقول علي رضي الله عنه (ألا إن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا)[٦].

وقد تأتي الجمل الخبرية بعد الأمر والنهي على وجه التعليل أو الدليل لهما، كقول أبي بكر رضي الله عنه: (الوحاء الوحاء، والنجاء النجاء؛ فإن من ورائكم طالبًا حثيثًا، مره

(١) ينظر: شروح التلخيص (١٦٤/١، ١٩٣) .

(٢) الخطب والمواعظ (ص١٨٧)، وجمهرة خطب العرب (٧٢/١) ومواعظ الصحابة (ص٥٧)، ووصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم (ص٥٠).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٩٣/٧، ح٣٤٤٤٥).

(٤) الخطب والمواعظ (ص١٨٧)، وجمهرة خطب العرب (٧٢/١) ومواعظ الصحابة (ص٥٧)، ووصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم (ص٥٠).

(٥) الجامع لشعب الإيمان (١٧١/١٣، ح ١٠١٢)، وجمهرة خطب العرب (١٠٤/١)، ومواعظ الصحابة (ص١٠٦).

(٦) الجامع لشعب الإيمان (١٧٣/١٣، ح ١٠١٣٠)، ومواعظ الصحابة (ص١٢٣).

سريع)[١]، وقوله موصيًا: (وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠])[٢]، وقول عثمان رضي الله عنه: (آثروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإنَّ الدُّنيا منقطعة، وإنَّ المصير إلى الله جل جلاله.. اتَّقوا الله فإنَّ تقواه جنَّةٌ من بأسه، ووسيلةٌ عنده)[٣].

وقد يأتي الخبر قصة بعد الأمر؛ لتمكين الموعظة في النفس، كقول عثمان رضي الله عنه: (إيَّاكم والخمر؛ فإنَّها مفتاح كلِّ شرٍّ.. أُتي رجلٌ فقيل له: إمَّا أن تحرّق هذا الكتاب، وإمَّا أن تقتل هذا الصبي، وإمَّا أن تقع على هذه المرأة، وإمَّا أن تشرب هذه الكأس، وإمَّا أن تسجد لهذا الصليب. قال: فلم ير فيها شيئًا أهون من شرب الكأس، فلمَّا شربها سجد للصليب، وقتل الصبي، ووقع على المرأة، وحرّق الكتاب)[٤].

والوعظ بالقصة منهج قرآني ونبوي معلوم، وقد قال الله جل جلاله آمرًا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يَعِض بالقصص: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال في خاتمة قصة يوسف عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

ومما يلحظ في جملة من مواعظ الخلفاء رضي الله عنهم الأمر بعلم الخبر، بصيغة «اعلم، اعلموا» كقول أبي بكر رضي الله عنه: (اعلموا أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم... واعلموا أنكم تغدون وتروحون في آجال قد غيب عنكم علمها... واعلموا أنكم ما أخلصتم لله فربكم أطعتم، وحقكم حفظتم)[٥]، وقوله لعمر رضي الله عنه: (اتق الله واعلم أن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار)[٦]، وقول عمر رضي الله عنه: (اعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق)[٧]، وقوله

(١) الخطب والمواعظ (ص١٨٧)، وجمهرة خطب العرب (٧٢/١) ومواعظ الصحابة (ص٥٧)، ووصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم (ص٥٠).

(٢) المراجع السابقة.

(٣) الجامع لشعب الإيمان (١٧١/١٣، ح ١٠١٢)، وجمهرة خطب العرب (١٠٤/١)، ومواعظ الصحابة (ص١٠٦).

(٤) التمهيد (١٠/١٥).

(٥) الخطب والمواعظ (ص١٨٧)، وجمهرة خطب العرب (٧٢/١) ومواعظ الصحابة (ص٥٧)، ووصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم (ص٥٠).

(٦) الخطب والمواعظ (ص١٩٨)، ومواعظ الصحابة (ص٤٥)، ووصايا الأنبياء والسلف (ص٥٠).

(٧) تاريخ الطبري (٤/ ٢١٦).

لابنه: (اعلم أنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا خشية له)[١]، وقول عثمان رضي الله عنه عن الدنيا: (واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها)[٢]، وقول علي رضي الله عنه: (واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد)[٣].

وهي صيغة واردة كثيرًا في القرآن الكريم في مقام الموعظة، من مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٥]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...﴾ [الحديد: ٢٠].

كما وردت في بعض مواعظ النبي ﷺ، ومن ذلك قوله: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»[٤]، وقوله وهو يخطب في أحد غزواته: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ»[٥]، وفي حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» فألقيت السوط من يدي، فقال: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ» فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا[٦].

ومن الظواهر الأسلوبية في الجمل الخبرية في مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم: التأكيد. والغالب أن يأتي بإنّ أو أنّ، أو القصر بإنما، وربما بالقسم، وغيره. وفيما ذكر سابقًا من مواعظ شاهد على التأكيد.

وتكاد بعض المواعظ الطويلة لا تخلو جميع جملها من تأكيد، كوصية أبي بكر رضي الله عنه

(١) الخطب والمواعظ (ص٢٠٤).
(٢) تاريخ الطبري (٤٢٢/٤)، وجمهرة خطب العرب (١٠١/١)، ومواعظ الصحابة (ص١٠٩).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٠١/٧، ح٣٤٥٠٤)، ومواعظ الصحابة (ص١٢٦).
(٤) أخرجه البخاري (ح٦٤٦٤) ومسلم (ح٢٨١٨).
(٥) أخرجه البخاري (ح٢٩٦٦، ٣٠٢٤) ومسلم (ح١٧٤٢).
(٦) أخرجه مسلم (ح١٦٥٩).

عند وفاته لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وستأتي بتمامها في أسلوب التقابل.

والخطاب الدعوي في القرآن الكريم تظهر فيه هذه الخصيصة الأسلوبية واضحة جليّة، وبأدوات وأساليب متنوعة، وتكاد بعض السور مع طولها لا تخلوا آياتها من التأكيد، كسورة الحج مثلاً[١].

وإذا كانت الموعظة قائمة على الترغيب والترهيب فإنهما يقتضيان التأكيد؛ لما فيه من تقوية المعاني، وتفخيم شأنها، وتمكينها في النفوس، فيسهم في تقوية الرغبة في المأمور به، أو الرهبة من المنهي عنه.

ثانيًا: الجمل الإنشائية:

الإنشاء قسيم الخبر، وإذا كان الخبر يراد به إفادة المخاطَب إثبات أمر لآخر أو نفيه عنه فإن الإنشاء لا يراد به هذا، وإنما يأتي لأغراض أخرى بحسب كل أسلوب من أساليبه، والخبر يقابل بالتصديق أو التكذيب، بخلاف الإنشاء فإنه لا يقابل بتصديق ولا تكذيب.

وتنقسم أساليب الإنشاء إلى نوعين: طلبي، وغير طلبي. أما الطلبي فتستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب، ومن أساليبه: الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء. وأما غير الطلبي فلا تستدعي مطلوبًا، ومن صيغه: الترجي، والقسم، وصيغ العقود، والتعجب، وغيرها[٢].

وبرز من الأساليب الإنشائية في مواعظ الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء.

١- الأمر والنهي:

الأمر والنهي أسلوبان من أساليب الإنشاء الطلبي، ويراد بالأمر طلب الفعل، وبالنهي طلب الكف عنه.

والموعظة قائمة على الأمر والنهي، كما سبق في الحديث عن تعريف الموعظة أنها كثيرًا ما تطلق على الأمر والنهي، وورد ذلك في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. وقد قيل في تعريفها: (هي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة)[٣].

(١) ينظر: الخطاب الدعوي في سورة نوح (مجلة الدراسات الدعوية، العدد ٧، محرم ١٤٣٧هـ).

(٢) ينظر: شروح التلخيص (١٦٦/١، ٢٣٤/٢)، ومعجم المصطلحات البلاغية (٣٣٢/١).

(٣) مفتاح دار السعادة (٤٧٥/١).

ويراد بهما في مقام الوعظ النصحُ والإرشاد والترغيب أو الترهيب. وإنما جاءت الموعظة بالأمر والنهي لما فيهما من طلب جازم، يحمل الموعوظ على الرغبة في الامتثال للأمر أو النهي.

وتكاد لا تخلو موعظة من مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم من أمر أو نهي، سواء بصيغهما الوضعية -وهو الكثير- أم بغير ذلك.

ومن الأمر -على تنوع صيغه الوضعية[١]-: قول أبي بكر رضي الله عنه: (تفكروا عباد الله فيمن كان قبلكم) وقوله في المساجد: (إياكم أن يعلم الله أنكم إنما تأتونها تلهيا، إنما بنيت للذكر)[٢]، وقوله في الحث على العمل الصالح قبل انقضاء الأجل: (الوحاء الوحاء، والنجاء النجاء)[٣]. وقول عمر لابنه رضي الله عنه: (اجعل التقوى نصب عينيك)[٤]، وقول عثمان رضي الله عنه: (آثروا ما يبقى على ما يفنى)[٥]، وقوله: (إيَّاكم والخمر)[٦]، وقول علي رضي الله عنه: (وعليك بالذي يقربك إلى الله)[٧].

ومن النهي: قول أبي بكر رضي الله عنه في رسالة إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه: (ولا يدخلّك عُجب فتخسر وتذِل)[٨]، وقول عثمان رضي الله عنه: (لا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنَّكم عن الباقية)[٩]، وقول علي رضي الله عنه: (لا يرجونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه)[١٠].

وقد يأتي الأمر والنهي بغير صيغتهما الوضعية، وإنما بصيغة أخرى كالخبر، والمقصود به الحث على الفعل أو الترك، نحو قول أبي بكر رضي الله عنه في خطبة له -وسبق ذكرها-: (فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة) أي: اتقوا الله، واثنوا عليه، واخلطوا الرغبة بالرهبة. وقوله رضي الله عنه ضمن خطبته السابقة: (إن قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم؛ فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم) فجاء النهي بفعله الخبري، أي: لا تكونوا

(١) للأمر أربع صيغ: فعل الأمر (اقرأ)، واسم فعل الأمر (دونك) بمعنى (خُذْ)، والمصدر النائب عن فعل الأمر (دَرَاك) أي (أدرك)، والفعل المضارع المقرون بلام الأمر (لِتقرأ).

(٢) الزهد، لأحمد بن حنبل (ص٩٣).

(٣) الخطب والمواعظ (ص١٨٧)، وجمهرة خطب العرب (٧٢/١) ومواعظ الصحابة (ص٥٧)، ووصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم (ص٥٠).

(٤) الخطب والمواعظ (ص٢٠٤)، ومواعظ الصحابة (ص٦١)، ووصايا الأنبياء والسلف (ص٦٣).

(٥) الجامع لشعب الإيمان (١٧١/١٣، ح ١٠١٢)، وجمهرة خطب العرب (١٠٤/١)، ومواعظ الصحابة (ص١٠٦).

(٦) التمهيد (١٠/١٥).

(٧) مصنف ابن أبي شيبة (١٠٠/٧، ح٣٤٤٩٩) ووصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم (ص٧٧).

(٨) تاريخ الطبري (٢٦/٤) وجمهرة رسائل العرب (١٣٣/١).

(٩) الجامع لشعب الإيمان (١٧١/١٣، ح ١٠١٢)، وجمهرة خطب العرب (١٠٤/١)، ومواعظ الصحابة (ص١٠٦).

(١٠) مواعظ الصحابة (ص١٢٦).

أمثالهم. وقول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة سبق ذكرها: (إنَّ الله إنَّما أعطاكم الدُّنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها) أي: اطلبوا بالدنيا الآخرة، ولا تركنوا إليها.

ب) الاستفهام:

يراد بالاستفهام في الأصل طلب العلم عما ليس بمعلوم، وله أدوات تدل عليه، كالهمزة وهل ومتى وأين وكيف وغيرها.

ويخرج عن الأصل إلى معان أخرى تستفاد من سياق الكلام، كالتقرير والتعجب والتوبيخ والإنكار وغيرها. وهذا كثير في القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال الناس[١].

ويكثر استعماله في مقام الموعظة، ومن ذلك قول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١].

وإذا جاء الاستفهام في مثل هذا المقام كان له تأثير عظيم في إثارة النفس وتنبيهها، وإقناعها، وحملها على المراجعة والرجوع والاتعاظ.

ولذا كثر وروده في مواعظ القرآن والسنة، وورد في مواعظ الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كقول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون في أجل معلوم؟)[٢]، وقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما اشتهى لحمًا فاشترى منه: (أو كلما اشتهيت شيئًا اشتريته؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؟)[٣]، وقول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة له: (اعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها، ومتعوا بها طويلا؟ ألم تلفظهم؟)[٤]، وقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أين من سعى واجتهد، وجمع وعدّد،

(١) ينظر: شروح التلخيص (٢/٢٤٦، ٢٩٠)، ومعجم المصطلحات البلاغية (١/١٨١).

(٢) الخطب والمواعظ (ص١٨٧).

(٣) مواعظ الصحابة (ص٨٣).

(٤) تاريخ الطبري (٤/٢٤٣).

وبنى وشيّد، وزخرف ونجّد، وبالقليل لم يقنع، وبالكثير لم يمتع؟ أين من قاد الجنود ونشر البنود؟)[١].

وقد تتتابع الاستفهامات؛ لمزيد من التأثير وتمكين الموعظة في النفوس، كقول أبي بكر في خطبة له: (ثم تفكروا عباد الله فيمن كان قبلكم: أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم؟ وأين الجبارون الذين كان لهم ذكر القتال؟ وأين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحروب؟ قد ضعضع بهم الدهر، وصاروا رميمًا. وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد نُسوا ونُسي ذكرهم، فهم اليوم كلا شيء. وأين الملوك الذين بنوا المدائن العظام وحصّنوها وجعلوا فيها الأعاجيب؟ فتلك بيوتهم خاوية وهم في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا؟ أين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ قد صاروا رميمًا. وأين من تعرفون من أصحابكم وإخوانكم؟ قد وردوا على ما قدموا، فحلّوا في الشقوة والسعادة)[٢].

ج) النداء:

النداء من أساليب الإنشاء الطلبي، ويراد به طلب إقبال المنادى، وله عدة أدوات أشهرها (يا) وينادى بها القريب والبعيد. وثمة أدوات للبعيد وهي: (أيا، وهيا، وآ)، وأدوات للقريب وهي: (الهمزة، وأي). وتختص (وا) بالندبة، وهي: نداء المتوجع منه، مثل: (وا رأساه) أو المتفجع عليه، مثل: (وا أبتاه)[٣].

والأصل في الخطاب أن يستفتح بالنداء، وهو ظاهر في خطاب الله ﷻ للناس على اختلافهم نحو: يا أيها الناس، يا أيها الذين آمنوا، يا أهل الكتاب، يا عبادي. وظاهر في خطاب الأنبياء للمدعوين في القرآن الكريم.

وربما تكرر النداء في الخطاب الواحد كما في دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٥]، وكما في موعظة لقمان لابنه يتكرر نداء الابن: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾... ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ

(١) مواعظ الصحابة (ص١٣٠).

(٢) الخطب والمواعظ (ص١٨٧)، وجمهرة خطب العرب (٦٩/١).

(٣) ينظر: شروح التلخيص (٣٣٣/٢)، ومعجم المصطلحات البلاغية (٣٢٦/٣).

أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٣-١٧].

وهو منهج النبي ﷺ في خطابه الدعوي، وقد أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بنداء المدعوين، فقال: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٣٩]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨][1].

وهو ظاهرة أسلوبية في الخطب والوصايا والمواعظ، وقد ظهر في مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم في استفتاح مواعظهم وربما في أثنائها. وينادى كل مدعو بحسب اسمه أو وصفه.

ومن نداءاتهم: قول أبي بكر رضي الله عنه: (يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية...)، (يا أيها الناس، سلوا الله المعافاة...)، (أيها الناس، إني أوصيكم بتقوى الله العظيم... فاتقوا الله عباد الله)، (اعلموا -عباد الله- أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم...)، (يا معشر المسلمين، استحيوا من الله ﷻ...)، (يا عمر، إن وليت على الناس فاتق الله...). وقول عمر رضي الله عنه: (يا معشر القراء، ارفعوا رؤوسكم...). وقول عثمان رضي الله عنه: (أيها الناس، اتقوا الله...)، (ابن آدم، اعلم أن ملك الموت الذي وكل بك لم يزل يخلفك... واعلم -ابن آدم- إن غفلت عن نفسك...). وقول علي رضي الله عنه: (أوصيكم -عباد الله- بتقوى الله... فاتقوا الله -عباد الله- وجدوا في الطلب... اتعظوا -عباد الله- بالعبر... عباد الله، اتقوا الله تقية من وجل وحذر)، (ألا أيها الناس، إنما الدنيا عرض حاضر... أيها الناس، أحسنوا في أعماركم...)، (يا أيها الناس، لا تكونوا ممن يرجو الآخرة بغير عمل... يا أغراض الدنيا، يا رهائن الموت، يا وعاء الأسقام، يا نُهبة الأيام، يا ثقل الدهر، ويا فاكهة الزمان، ويا نَور الحدثان، ويا أخرس عند الحجج، ويا من غمرته الفتن وحيل بينه وبين معرفة العبر...)، وقوله لبَنيه: (يا بَنيّ، أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة.. يا بَنيّ... يا بَنيّ... يا بَنيّ...)، وقوله لبعض أصحابه: (يا كُميل بن زيادٍ، إنَّ هذه القلوب أوعيةٌ)، (يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا... يا نوف... يا نوف)[2].

وقد ينادَى مَن في ندائه موعظة للمخاطب؛ تعريضًا له بها، كقول علي رضي الله عنه -وهو مشرف على مقبرة مخاطبًا أهل القبور، ومعه كميل بن زياد-: (يا أهل القبور، يا أهل البِلى، يا أهل الوحشة، ما الخبر عندكم؟ فإن الخبر عندنا: قد قُسمت الأموال، وأُيتمت الأولاد، واستُبدل بالأزواج، فهذا الخبر عندنا، فما الخبر عندكم؟) ثم التفت

(١) ينظر: بلاغة الخطاب الدعوي في سورة نوح (مجلة الدراسات الدعوية، العدد ٧، محرم ١٤٣٧هـ).

(٢) سبق توثيق هذه النصوص.

إلى كميل فقال: (يا كميل، لو أُذن لهم في الجواب لقالوا: إن خير الزاد التقوى) ثم بكى، وقال: (يا كميل، القبر صندوق العمل، وعند الموت يأتيك الخبر)[١].

والنداء في مقام الموعظة له أثر في تنبيه المخاطب واستمالة قلبه والتأثير عليه، وخصوصًا إذا كان باسم أو وصف محبوب، ومناسب للمقام، ومع تكراره تقوى الاستمالة والتأثير.

ثالثًا: التقابل:

يقصد بالتقابل ذكر المعنى وما يضاده. وقد يكون بذكر معنى واحد وما يضاده، ويطلق عليه البلاغيون مصطلح «الطباق». وقد يكون بأكثر من معنى ثم ما يضادها، ويطلق عليه مصطلح «المقابلة»[٢].

وقد يكون التقابل بين المعنى والمعنى بالألفاظ الموضوعة الصريحة في التضاد، وقد يكون بالألفاظ التي تفهم التضاد سواء أكانت بالحقيقة أم بالمجاز.

ويقع التضاد في الجملة الواحدة، وبين الجملتين، وبين فقرتين متعددتي الجمل، وبين قصتين أو موقفين. وهو كثير في القرآن الكريم والسنة النبوية، بل يكاد الخطاب القرآني يكون قائمًا على التقابل، وقد قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وفُسر كونه «مثاني» بذكر الشيء وضده، قال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): (وهذا معنى تسمية القرآن «مثاني» على أصح أقوال العلماء... وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله: ذكر الشيء ومقابله)[٣].

والتقابل ظاهرة أسلوبية في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ كما هي في مواعظ القرآن الكريم والسنة النبوية، ويؤدي في خطاب الموعظة ثلاث وظائف:

الأولى: وظيفة معنوية، بتمكين المعنى في النفس وتقريره أحسن تقرير؛ إذ بالضد يظهر تمام معنى الضد، ويتميز أتمّ تمييز، والموعظة قائمة على الترغيب والترهيب، ولا تبرز حقيقة الأمر المرغب فيه أو المرهب منه إلا بذكر حقيقة ضده، يقول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ): (لن تكمل الحكمة والقدرة إلا بخلق الشيء وضده، ليُعرف كل واحد منهما بصاحبه؛ فالنور يعرف بالظلمة، والعلم يعرف بالجهل، والخير يعرف بالشر،

(١) كنز العمال (٦٩٧/٣، ح٨٤٩٥)، ومواعظ الصحابة (ص١٢١).

(٢) ينظر: شروح التلخيص (٢٨٦/٤ و٢٩٦)، ومعجم المصطلحات البلاغية (٢٥١/٢، ٦٦/٣، ٢٨٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٠٣/١).

والنفع يعرف بالضر...)[١]، وقال ابن تيمية (ت٧٢٨هـ): (من عرف الشر وذاقه، ثم عرف الخير وذاقه، فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما كما ذاقهما، بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية). وهو كما قال عمر... ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيمانًا وجهادًا ممن بعدهم؛ لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر؛ لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي. ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف أحرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك؛ ولهذا يقال: والضد يظهر حسنه الضد)[٢].

والثانية: وظيفة نفسية، تتمثل في التوازن في الموعظة بين الترغيب والترهيب؛ لأن النفس البشرية يتنازعها طبيعتان: الخوف والرجاء، واستقامتها في التوازن بينهما؛ لأن الخوف يدفع إلى تقوى الله واجتناب معصيته، والرجاء يرغب في طاعته، ويقي من القنوط من رحمته، وإذا بالغ العبد في أحدهما لم تستقم نفسه؛ فالمبالغة في الخوف تؤول إلى التشدد والقنوط، وفي الرجاء تؤول إلى الأمن من مكر الله، والتساهل في طاعته، والوقوع في معصيته، والخوف يقتضي خطاب الترهيب، والرجاء يقتضي خطاب الترغيب[٣].

وقد أدرك الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم هذه الطبيعة البشرية؛ فأوصوا بالتوازن بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة، كما قال أبو بكر رضي الله عنه في وصيته لعمر رضي الله عنه -وستأتي بتمامها-: (وأن الله ذكر آية الرحمة مع آية العذاب؛ ليكون المؤمن راغبًا راهبًا: لا يتمنى على الله، ولا يقنط من رحمته)، وقال في خطبة له سبق ذكرها: (إني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة)، وقال علي رضي الله عنه: (لا يرجونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه)[٤]، وقال موصيًا الوعاظ: (ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يُقَنِّط الناس من رحمة الله، ولا يؤَمنّهم من عذابه، ولا يرخص لهم في معاصي الله)[٥]. ولذا جاءت كثير من مواعظهم تجمع بين الترغيب

(١) تأويل مختلف الحديث (ص١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٣٠٠-٣٠١).

(٣) ينظر: بلاغة الخطاب الدعوي في سورة نوح (مجلة الدراسات الدعوية، العدد ٧، محرم ١٤٣٧هـ).

(٤) مواعظ الصحابة (ص١٢٦).

(٥) السابق (ص١٢٢).

والترهيب، والوعد والوعيد، على سبيل التقابل بينهما.

والثالثة: وظيفة نصيّة، تتمثل في المحافظة على وحدة النص؛ فهو نوع من أنواع التناسب -تناسب التضاد- وأداة من أدوات الترابط، وخصوصًا إذا كان النص كله قائمًا على التقابل، كما سيأتي مثاله.

وجاء التقابل في مواعظ الخلفاء رضي الله عنهم بصور متنوعة:

من ذلك: التقابل بين المعنى وما يضاده في جملة واحدة أو أكثر، كقول أبي بكر رضي الله عنه السابق: (وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة)، فقابل الرغبة بالرهبة، وقوله في الخطبة نفسها: (فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله)، فقابل الاستطاعة بنفيها، وفي النفي استثارة للنفس ليتمكن معنى الاستعانة بالله أحسن تمكن.

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه لأبي موسى رضي الله عنه: (إن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، وإن أشقى الرعاة عند الله من شقيت به رعيته)[1]، فقابل بين السعادة والشقاء، وفي ذكر أحدهما تمكين لمعنى الآخر في النفس ترغيبًا أو ترهيبًا.

ويأتي التقابل في مواعظهم رضي الله عنهم بين معان متعددة وما يقابلها في جملة أو أكثر، وهذا كثير، كقول أبي بكر رضي الله عنه في خطبة سبق ذكرها: (واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي... إن الله تبارك وتعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيرًا، ولا يصرف عنه به شرًا، إلا بطاعته واتباع أمره، وإنه لا خير بخير بعده النار، ولا شر بشر بعده الجنة)، وقول عثمان رضي الله عنه: (ارموا بالدنيا حيث رمى بها الله، واطلبوا الآخرة...)[2]، وقوله في خطبة سبق ذكرها: (إنَّما الدُّنيا تفنى، والآخرة تبقى) وقول علي رضي الله عنه وسبق ذكره: (ألا إن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل).

وقد تتتابع المتقابلات في الموعظة من أولها إلى آخرها، وأوضح مثال على ذلك وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما، حيث قال:

يا عمر، إن وليت على الناس فاتق الله.

واعلم أن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل.

وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة.

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٩٤/٧، ح٣٤٤٤٨)، وجمهرة رسائل العرب (٢٢٣/١).

(٢) تاريخ الطبري (٢٤٣/٣) ، ومواعظ الصحابة (ص١٠٩).

وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحق لميزان إذا وضع فيه الحق غدًا بأن يكون ثقيلاً. وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفته عليهم، وحق لميزان إذا وضع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا.

وأن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئها، فإذا ذكرتهم قلت: إني لخائف ألا ألحق بهم. وأن الله ذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ورد عليهم أحسنها، فإذا ذكرتهم قلت: إني لخائف أن أكون من هؤلاء.

وأن الله ذكر آية الرحمة مع آية العذاب؛ ليكون المؤمن راغبًا راهبًا، لا يتمنى على الله، ولا يقنط من رحمته.

فإن أنت حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك. وإن أنت ضيعت وصيتي فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت، ولست بمعجزه)[1].

وقد تكون الموعظة مبنية على التقابل بين حالين، كمقابلة عمر رضي الله عنه بين حال المتواضع والمتعاظم في قوله: (إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتَعِش نَعَشك الله، فهو في نفسه صغير وفي أنفس الناس كبير. وإن العبد إذا تعظَّم، وعدا طوره، رَهَصه الله إلى الأرض، وقال: اخْسأ أَخْسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أنفس الناس صغير، حتى لهو أحقر عنده من خنزير)[2].

وفي هاتين الصورتين الأخيرتين مثال على أثر التقابل في الوحدة البنائية للنص، والمحافظة على ترابطه وتماسكه وانسجامه.

رابعًا: التضمين للقرآن والسنة:

يعد تضمين كلام الله ورسوله من الخصائص الأسلوبية الظاهرة في مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

والتضمين بمفهومه العام هو: إدراج كلام الغير في أثناء الكلام. ويشمل: القرآن والحديث والشعر وغيرها. وقد يدرج على أنه من كلام الغير؛ تمثلاً واستدلالاً، وقد يدرج لا على أنه منه[3].

وإذا كان التضمين لكلام الله ورسوله من غير بيان أنه منهما سُمي اقتباسًا[4].

(١) الخطب والمواعظ (ص١٩٨)، ومواعظ الصحابة (ص٤٥)، ووصايا الأنبياء والسلف (ص٥٠). ولعل القارئ يلحظ أني كتبت الوصية بطريقة تتضح فيها المتقابلات؛ فكل فقرة -سوى الأولى- تحوي مقابلة.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٩٦، ح٣٤٤٦١)، ومواعظ الصحابة (ص٩٠).

(٣) ينظر: المثل السائر (٣/٢٠٠) ، وتحرير التحبير (ص١٤٠)، ومقدمة ابن النقيب (ص٢٤٠)، والإتقان في علوم القرآن (٣/٣٠٩)، ومعجم المصطلحات البلاغية (٢/٢٦٤).

(٤) ينظر: شروح التلخيص (٤/٥٠٩) ، ومعجم المصطلحات البلاغية (١/٢٧٠).

ويطلق مصطلح «التضمين» على معنى أخص: إذا أدرج الشاعر شعرًا آخر في شعره[١].

والتضمين لكلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ جاء على وجهي الاقتباس والاستدلال.

١) الاقتباس.

الاقتباس -كما سبق- أن يُضمن في الكلام شيء من القرآن أو الحديث لا على أنه منهما .

ولما كانت نصوص القرآن والحديث في المنزلة العالية من البلاغة والقوة في التأثير أقبل البلغاء عليهما يقتبسون منهما في كلامهم (ليخلعوا عليه لبوسًا من الهيبة والجلال، ويصبغوه بصبغة الحكمة والبهاء والجمال، ويكون له التأثير المطلوب في الأسماع والقلوب)[٢]، قال الثعالبي (ت٤٢٩هـ): (إنما قصارى المتحلين بالبلاغة والحاطبين في حبل البراعة أن يقتبسوا من ألفاظه ومعانيه في أنواع مقاصدهم، أو يستشهدوا ويتمثلوا في فنون مواردهم ومصادرهم؛ فيكتسي كلامهم بذلك الاقتباس معرضًا ما لحسنه غاية، ومأخذًا ما لرونقه نهاية، ويكسب حلاوة وطلاوة ما فيها إلا معسولة الجملة والتفصيل، ويستفيد جلالة وفخامة ليست فيهما إلا مقبولة الغرة والتحجيل)[٣].

وكيف لا يكون الاقتباس من ألفاظ الوحي ومعانيه بهذه المنزلة و(هذا النبي ﷺ هو أفصح العرب لَهجة، وأعذبهم عَذْبة، وأحسنهم إفصاحًا وبيانًا، وأرجحهم في الحكمة البالغة ميزانًا- قد اقتبس من معاني القرآن وألفاظه في الكثير من كلامه، والجمّ الغفير من مقاله. وكذلك السلف الأفضل من الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم أجمعين)[٤].

ومن الاقتباسات القرآنية في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ قول أبي بكر ﷺ من ضمن وصاياه: (وأن تستغفروه، إنه كان غفارًا)[٥]، وهو اقتباس من قول الله ﷻ عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وقوله في خطبة له: (أين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد نُسوا ونُسي ذكرهم، فهم اليوم كلا

(١) ينظر: شروح التلخيص (٥١٤/٤)، ومعجم المصطلحات البلاغية (٢٦٠/٢).

(٢) الاقتباس (ص٣٦).

(٣) الاقتباس من القرآن الكريم (ص٢٣-٢٤).

(٤) السابق (ص٢٤).

(٥) الخطب والمواعظ (ص١٨٧).

شيء. وأين الملوك الذين بنوا المدائن العظام وحصّنوها وجعلوا فيها الأعاجيب؟ فتلك بيوتهم خاوية وهم في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا؟)[١] اقتباس من أكثر من آية: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ١٠] وآية ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢] وآية ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ومن اقتباسات عمر رضي الله عنه: (تزينوا للعرض الأكبر، يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية)[٢]، اقتباس من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقوله: (اعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق؛ فأنفقوا خيرًا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[٣]، اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

ومن اقتباسات عثمان رضي الله عنه: (والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزابًا ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾)[٤]، اقتباس آيتين من آل عمران [١٠٣-١٠٤].

ومن اقتباسات علي رضي الله عنه في خطبة له على قبر: (كل نفس معها سائق يسوقها لمحشر، وشاهد يشهد عليها، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فارتجت لذلك اليوم البلاد، ونادى المناد، وكان يوم التلاق، وكشف عن ساق، وكسفت الشمس، وحشرت الوحوش)[٥]، وما بين الهلالين مقتبس من سورة الزمر [آية ٦٩]. وقوله: (كل نفس معها سائق...) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]. وقوله: (وكشف عن ساق) مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]. وقوله: (وحشرت الوحوش) مقتبس من قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥].

(١) السابق.
(٢) مواعظ الصحابة (ص٧٥).
(٣) تاريخ الطبري (٤/ ٢١٦).
(٤) الجامع لشعب الإيمان (١٣/١٧١، ح ١٠١٢)، وجمهرة خطب العرب (١/١٠٤)، ومواعظ الصحابة (ص١٠٦).
(٥) مواعظ الصحابة (ص١٤٥)، ووصايا الأنبياء والسلف (ص٧٩).

وفي خطبة أخرى قال: (ألا إنّ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم﴾)[١]، وهذا مقتبس من سورة البقرة [آية ٢٦٨].

ومن الاقتباسات الحديثية قول أبي بكر رضي الله عنه السابق لسلمان رضي الله عنه: (من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله، فلا تخفرن الله جل جلاله في ذمته؛ فيكبك في النار على وجهك) وهو مقتبس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»[٢].

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه السابق: (إن الدنيا خضرة حلوة، فمن أخذها بحقها كان قَمِنا أن يُبارك له فيها، ومن أخذها بغير ذلك كان كالآكل الذي لا يشبع)، مقتبس من قول النبي صلى الله عليه وسلم لحكيم بن حزام رضي الله عنه: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ»[٣].

ومن ذلك قول عثمان رضي الله عنه: (مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن يسلط عليكم شراركم، فيدعو عليهم خياركم فلا يستجاب لهم)[٤]، مقتبس من حديث: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، قَبْلَ أَنْ تَدْعُوا فَلَا يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[٥].

وقول علي رضي الله عنه: (مثل الذي جمع الإيمان والقرآن مثل الأترجة: الطيبة الريح، الطيبة الطعم. ومثل الذي لم يجمع الإيمان ولم يجمع القرآن مثل الحنظلة: خبيثة الريح، وخبيثة الطعم)[٦]، مقتبس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ: لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ: لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»[٧].

والذي يتأمل مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم -وقد نظر في كلام الله جل جلاله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم- يرى أثرهما في ألفاظها ومعانيها وأساليبها، حتى كأنها شعبة من الوحي

(١) مواعظ الصحابة (ص١٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (ح٦٥٧).
(٣) أخرجه البخاري (ح١٤٧٢ و٢٧٥٠) ، ومسلم (ح١٠٣٥).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٥٣٠/٧، ح ٣٧٧٤٥)، ومواعظ الصحابة (ص١١١).
(٥) أخرجه ابن ماجة (ح٤٠٠٤) وحسنه الألباني وشعيب الأرناؤوط.
(٦) مصنف ابن أبي شيبة (١٠٢/٧ ح٣٤٥١٣).
(٧) أخرجه البخاري (ح٥٠٢٠ و٥٠٥٩ و٥٤٢٧ و٧٥٦٠)، ومسلم (ح٧٩٧).

وإن لم تكن منه، وما كان ذلك إلا لكونهم قد أُشربوا كلام الله في قلوبهم وهو يتنزل عليهم، كما أنهم كانوا أقرب إلى رسول الله ﷺ من غيرهم فعايشوه وتأثروا به وحفظوا كلامه، ثم جرت ألفاظ القرآن والحديث على ألسنتهم.

ب) التمثل والاستدلال.

ينبغي ألا تخلو الموعظة من الاستدلال والاستشهاد بالقرآن والسنة أو بأحدهما، وخصوصًا من كتاب الله ﷻ (ولقد تقوم الآية الواحدة المستشهد بها في بلوغ الغرض وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة)[١].

والله ﷻ قد قال لنبيه ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وضمير (بِهِ) في قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ عائد إلى الوحي في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، قال ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ): (وهو القرآن، وما يُوحى به إلى الرسول ﷺ غير مراد به الإعجاز)[٢]. والقرآن أعظم موعظة للقلوب كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ & قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وكان النبي ﷺ يَذْكر في خطبه آيات من القرآن الكريم يُذَكّر بها الناس، كما روى ذلك جابر بن سمرة ﷺ قال: (كانت للنبي ﷺ خطبتان، يجلس بينهما، يقرأ القرآن، ويذكر الناس)[٣].

واستحب بعض العلماء تلاوة آية على الأقل في خطبة الجمعة، وأوجبها بعضهم[٤]. وعِيب على الخطبة خلوها من آي القرآن الكريم، وذكر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) أن خطباء السلف وأهل البيان كانوا يسمون الخطبة التي لم توشح بالقرآن: الشوهاء[٥].

ولم تخل مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ من آيات القرآن الكريم وأقوال النبي ﷺ، على سبيل الاستشهاد والاستدلال، ومن ذلك قول أبي بكر ﷺ موصيًا: (وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

(١) حسن التوسل (ص٧٦).
(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢٤٤/٧).
(٣) أخرجه مسلم (ح ٨٦٢).
(٤) ينظر: المجموع (٣٨٩/٤)، والمغني (١٧٤/٣-١٧٦).
(٥) البيان والتبيين (٦/٢).

خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]). ويستدعي ﷺ حديث رسول الله ﷺ لإزالة شبهة علقت عند بعض الناس بشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك في قوله: (يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ النّاسَ إذا رَأَوا المُنْكرَ ولا يُغَيّروه أَوْشكَ اللهُ أنْ يَعُمّهمْ بِعِقابِه»)[١].

وفي موعظة عمر ﷺ السابقة لجابر بن عبدالله ﷺ -لما رآه اشترى لحمًا- قال: (أو كلما اشتهيت شيئًا اشتريته؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؟).

وفي خطبة لعثمان ﷺ قال: (ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلاً، وللذي هو خير، فقال ﷻ: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦])[٢].

وفي خطبة لعلي ﷺ قال: (ما نجا من نجا إلا بمعرفة نفسه، وما هلك من هلك إلا من تحت يده، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦])[٣].

وربما كانت موعظة الخليفة قائمة على الحديث النبوي، كما روى أوسط البَجَلي أنه قدم المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ بعام، فألفى أبا بكر ﷺ يخطب الناس، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ عام الأول مقامي هذا -فبكى أبو بكر ﷺ- ثم قال -يعني رسول الله ﷺ-: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ، وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ، وَهُمَا فِي النَّارِ، وَسَلُوا اللهَ الْمُعَافَاةَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْتَ رَجُلٌ بَعْدَ الْيَقِينِ شَيْئًا خَيْرًا مِنَ الْمُعَافَاةِ» ثمّ قال: «لا تَقَاطَعُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[٤]. وروى ابن عمر بن الخطاب ﷺ خطب بالجابية، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم، فقال: «اسْتَوْصُوا بِأَصْحَابِي خَيْرًا، ثُمَّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/١٦٥، ١٧٥، ح١، ١٦) وصححه أحمد شاكر في تحقيقه له.

(٢) تاريخ الطبري (٣/٢٤٣) ، ومواعظ الصحابة (ص١٠٩).

(٣) مواعظ الصحابة (ص١٦٧).

(٤) رواه أبو عبيد في الخطب والمواعظ (ص١٨٥)، وأحمد في مسنده (١/١٦٨ و١٧٥، ح٥، ١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٣٨١، ح٧٢٤)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند.

الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْتَدِئُ بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا. فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ. لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا. وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»[١].

وإذا كان الاقتباس له أثر في تمكين المعنى وتقريره، فإن ذكر الآية والحديث صراحة آكد في الموعظة، وأكثر تمكينًا لها وأقوى إقناعًا وتأثيرًا بها، وإن لآيات القرآن وأقوال الرسول ﷺ من القبول والتأثير لدى المؤمن ما ليس للكلام لو خلا منهما.

خامسًا: أساليب البيان:

أساليب البيان التي عُني البلاغيون بدراستها هي: التشبيه، والمجاز، والكناية. وهذه الأساليب طرق يُعبر بها عن المعنى الواحد على اختلافها في وضوح الدلالة[٢]؛ ولذا يدرسها البلاغيون في علم البيان من جهة دلالتها على المعنى، بغض النظر عن كيفية تركيبها، التي يُعنى بها علم المعاني. على أن بلاغة الأسلوب البياني ليست في وضوحه وحسن إبانته فحسب، بل لا بد من حسن تركيبه، كما قال الرماني (ت٣٨٤هـ) في التشبيه: (التشبيه البليغ: إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه، مع حسن التأليف)[٣].

وهذه الأساليب تظهر قدرة عالية على تصوير المعنى وتشكيله في خيال المتلقي؛ لأنها تعرضه بصورة محسوسة وكأنه يشاهدها ويعايشها، والنفس تتفاعل مع الصور، فيحدث بها من البيان والتأثير أكثر مما لو عرض المعنى غفلاً عنها[٤]، قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في التشبيه: (لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد)[٥].

وتؤدي هذه الأساليب التصويرية البيانية عدة وظائف، منها: الوظيفة الإخبارية، وذلك حينما يريد المتكلم بالتشبيه أو المجاز أو الكناية مجرد إخبار المخاطب وإفادته بالحكم الذي تضمنته الجملة، وإنما استعان بهذه الأساليب في سياقها لكونها أقدر على بيان المعنى المراد أتم بيان. ومنها الوظيفة الجمالية، فهذه الأساليب لها أثر في

(١) رواه أبو عبيد في الخطب والمواعظ (ص٢٠١)، وأحمد في مسنده (٢١٥/١، ح١١٤)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند.

(٢) ينظر: شروح التلخيص (٢٥٨/٣)

(٣) النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص٨١).

(٤) ينظر: مقاييس البلاغة (ص٦٢٤-٦٣١).

(٥) الكشاف (٧٩/١).

جمال الخطاب، وإمتاع المخاطَب. كما تؤدي هذه الأساليب في كثير من السياقات وظيفة الإيجاز والاختصار.

إلا أن هذه الأساليب -في مقام الموعظة- تؤدي في الغالب وظيفتين مهمتين:

الأولى: الوظيفة النفسية:

حيث يعمد المتكلم في مقام الترغيب والترهيب إلى الخطاب بالتشبيه -مثلاً- للتأثير في النفس، واستمالة القلب بتزيين المشبه وتحسينه ومدحه، وعرضه في معرض المحبوب إلى النفس، والمرغوب فيه والمطموع به، أو تقبيحه وتحقيره وذمه، وعرضه في معرض المكروه إليها، والمحذور عنه، والمخوف منه. قال ابن الأثير (ت٦٣٧هـ): (وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طريق الترغيب فيه، أو التنفير عنه. ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالاً حسنًا يدعو إلى الترغيب فيها. وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالاً قبيحًا يدعو إلى التنفير عنها)[1].

ومن ترغيب النفس قول الله ﷻ في الإنفاق في سبيله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ومن ترهيبها وتنفيرها قوله ﷻ في تشبيه الغيبة بأكل لحم الأخ الميت: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقوله في تخويف المعرضين من قوم النبي ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصبت: ١٣].

الثانية: الوظيفة الإقناعية (الحجاجية):

قد يستدعي المتكلم أساليب التشبيه أو المجاز أو الكناية؛ لمحاجة المخاطَب وإقناعه بالفكرة؛ لما فيها من عرض المعنى بدليله وبرهانه، وخصوصًا إذا كان فيه ما يدعو إلى التعجب والاستبعاد. كما أن هذه الأساليب تنتقل بالمتلقي من معنى ظاهر إلى معنى آخر هو مراد المتكلم، مما يحرك عقله للنظر والتأمل والتدبر في «المعنى» للتوصل إلى «معنى المعنى»[2]، وبهذا يتمكن مقصود المتكلم ويتقرر في نفس المخاطب بأبلغ ما يكون.

(١) المثل السائر (٢/ ١٣٠-١٣١).

(٢) «معنى المعنى» هو المعنى المقصود الذي ترتب على معنى اللفظ المذكور، قال عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (ص٢٦٣): (ههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: «المعنى» و«معنى المعنى»، تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة. وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر).

والقرآن الكريم والحديث الشريف يستخدمان هذه الأساليب لإثبات المعنى وتقريره والإقناع به، ومن ذلك قول الله تعالى في الاحتجاج للبعث: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]. ومن ذلك حديث الأعرابي الذي ظن سوءًا حينما ولدت زوجته غلامًا أسود، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، وإني أنكرته. فقال النبي ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم. قال: «فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر. قال: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» قال: إن فيها لُورقًا. قال: «فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟» قال: عسى أن يكون نزعه عرق. قال: «وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ»[(١)].

قال الزمخشري (ت٥٣٨هـ) عن استحضار الأمثال والنظائر: (وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي. ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣])[(٢)].

وهاتان الوظيفتان -النفسية والإقناعية- تتعاضدان في الموعظة لترغيب المخاطَب في الصالحات، وترهيبه من السيئات؛ فالتأثير النفسي يتوسل به الواعظ لأن يقتنع المخاطَب ويستجيب، فيمتثل للأمر بفعل المأمور، أو النهي باجتناب المنهي.

وقد جرت في مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أساليب البيان، من تشبيه ومجاز وكناية، إلا أن التشبيه والمجاز يكثران في مواعظهم، وخصوصًا في تصوير حال الدنيا وغرورها؛ للتزهيد فيها والحذر منها والإقبال على الآخرة والرغبة فيها، ومن أمثلتها ما يأتي:

أ) التشبيه:

يقصد بالتشبيه: الدلالة على مشاركة شيء (مشبه) لآخر (مشبه به) في صفة أو أكثر (وجه الشبه)؛ لبيانها في المشبه. وله أدوات متنوعة: حرفية، وفعلية، واسمية، وهي: الكاف، كأن، يشبه، يماثل، شبيه، مثل، وغيرها[(٣)]. ولا بد في أسلوب التشبيه من وجود المشبه والمشبه به معًا. وأما الأداة ووجه الشبه فقد يذكران جميعًا، وقد يحذفان جميعًا، وقد يحذف أحدهما.

(١) أخرجه البخاري (ح٥٣٠٥ و٧٣١٤) ، ومسلم (ح١٥٠٠).

(٢) الكشاف١/٧٩.

(٣) ينظر: شروح التلخيص (٢٩٢/٣)، ومعجم المصطلحات البلاغية (١٧٠/٢).

ومن التشبيهات في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ: قول أبي بكر رضي الله عنه السابق لعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه -في إقبال الدنيا عليهم والحذر من الاغترار بها-: (ستتخذون ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألمون ضَجائع الصُّوف الأذَري كأن أحدكم على حَسَك السَّعْدان...)، فشبه تألمهم من الاضطجاع على الصوف الأذري لخشونته عليهم، بعد أن ذاقوا نعيم الدنيا، بالتألم من الوقوف أو المشي على شوك السعدان.

ومن التشبيهات قول عمر رضي الله عنه -وسبق ذكره-: (إن الدنيا خَضِرة حُلوة، فمن أخذها بحقها كان قَمِنا أن يُبارك له فيها، ومن أخذها بغير ذلك كان كالآكل الذي لا يشبع)، فشبه الدنيا بالنبتة أو الفاكهة التي اجتمع فيها الخضرة والحلاوة، وكلتاهما تشتهيهما النفس، وتلذ لهما، وترغب فيهما، وتحرص عليهما، ولكن من أكثر منها فقد تهلكه ولا تنفعه، وهكذا الدنيا من أخذها بحقها واستعملها فيما يرضي الله بارك الله له فيها، ومن حرص عليها وأخذها بغير ذلك لم يبارك له فيها، فلا تنفعه وقد يكون فيها حتفه، وكان مثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع، فيأكل ويأكل ويأكل حتى يهلك. وهذان تشبيهان يبينان حقيقة الدنيا، وينفران من الحرص عليها فيما لا ينفع عند الله. ومثل هذا التشبيه قول عثمان رضي الله عنه -وسبق ذكره-: (إن الدنيا خضرة، قد شُهيت إلى الناس...).

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه، حينما مَرّ على مزبلة، فاحتبس عندها، فكأن أصحابه تأذوا بها، فقال: (هذه دنياكم التي تحرصون عليها)[1]. وجاء التشبيه مقلوبًا، وكأن وجه الشبه -وهو الأذى والقذارة- في الدنيا (المشبه به) أمكن من المزبلة (المشبه)، وفي هذا مبالغة في التنفير من الحرص على الدنيا.

ومن التشبيهات في تصوير الحياة الدنيا قول علي رضي الله عنه: (إنما دنياكم كفيء الظل، أو زاد الراكب)[2]؛ تصويرًا لسرعة زوالها، وهو مقتبس من تشبيه النبي ﷺ في قوله: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[3].

ومن تشبيهاته في شأن الدنيا قوله: (إنما مثل الدنيا مثل الحيّة، ليّن مسّها، ويقتل سمّها)[4]، فإذا كانت الحية بخبثها وسمّها قد تغرّ البعض بلين ملمسها ثم تلدغه فتهلكه، فكذلك الدنيا تغر الإنسان بزينتها وزهرتها، حتى إذا اطمأن إليها وانغمس فيها ألهته عن الله والدار الآخرة، ثم أردته في النار، والعياذ بالله.

(١) مواعظ الصحابة (ص٧٨).

(٢) السابق (ص١٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (ح٢٣٧٧) وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) الجامع لشعب الإيمان (١٣/١٧٩، ح١٠١٤٢).

ومن تشبيهاته فيها قوله: (الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب)[١]، فشبه الدنيا بالجيفة في نتنها، وحذفت الأداة ووجه الشبه على سبيل التشبيه البليغ؛ للمبالغة في التنفير من الولوغ في الدنيا والحرص عليها.

ومن التشبيهات قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ويل لديان الأرض من ديان السماء يوم يلقونه، إلا من أمّ العدل وقضى بالحق... وجعل كتاب الله مرآته بين عينيه)[٢]، فشبه القرآن بالمرآة، يعرض المرء نفسه على أحكامه وأخلاقه، فيتبين منها محاسنه وعيوبه، كما يتبين صورته أمام المرآة.

ومنها قول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الترهيب من الخمر: (إيَّاكم والخمر؛ فإنَّها مفتاح كلِّ شرٍّ)[٣]، فشبه الخمر بمفتاح الشر، وليس شرًّا مخصوصًا، بل كل شرّ. وجاء التشبيه بيانًا لعلة النهي عن الخمر.

ومنها قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تشبيه الصبر والإيمان بالرأس والجسد: (واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان)[٤]، وقوله السابق في تشبيه المؤمن القارئ بالأترجة، والمنافق بالحنظلة: (مثل الذي جمع الإيمان والقرآن مثل الأترجة: الطيبة الريح الطيبة الطعم، ومثل الذي لم يجمع الإيمان ولم يجمع القرآن مثل الحنظلة: خبيثة الريح وخبيثة الطعم).

ب) المجاز:

المجاز نوعان: لغوي، وعقلي.

أما العقلي فيكون بإسناد الشيء إلى غير ما هو له في الحقيقة؛ لعلاقة بين المسند والمسند إليه، والعلاقات كثيرة، مثل: (السببية، والفاعلية، والمفعولية، والمصدرية، والزمانية، والمكانية...)[٥].

وأما اللغوي فيكون باستعمال اللفظ في معنى لم يوضع له في اصطلاح التخاطب؛ لعلاقة بينهما: إما المشابهة؛ ويسمى المجاز حينئذ استعارة، وإما غيرها؛ ويسمى مجازًا مرسلاً، وعلاقاته كثيرة، منها: (الجزئية، والكلية، والسببية، والمسببية، والمحلية، والحالية...). ولا بد من قرينة تصحح المجاز وتمنع من إرادة المعنى الوضعي[٦].

(١) مواعظ الصحابة (ص١٧٠).
(٢) السابق (ص١٨٣).
(٣) التمهيد (١٠/١٥).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٠١/٧، ح٣٤٥٠٤)، ومواعظ الصحابة (ص١٢٦).
(٥) ينظر: شروح التلخيص (٢٣٥/١).
(٦) ينظر: السابق (٢٠/٤-٢٦).

ومن المجازات في مواعظ الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

قول أبي بكر رضي الله عنه -وسبق ذكره-: (رأيت الدنيا قد أقبلت، ولمّا تقبل، وهي جائية... ووالله لأن يُقدَّم أحدكم فيُضرَب عنقه -في غير حَدّ- خير له من أن يسبح في غَمْرة الدنيا).

ففي إضفاء الإقبال والمجيء على الدنيا تصوير لانفتاح الدنيا بنعيمها وترفها على الناس، وكأنها تسرع إليهم بحرص ورغبة، كما يقبل المشتاق إلى من يشتاق إليه.

وفي قوله: (يسبح في غَمْرة الدنيا) تصوير لحال من الْتهى بلذات الدنيا وشهواتها بمن ينغمس في الماء الكثير ويسبح فيه، وقد يغرقه. والغَمْر والغَمْرة: الماء الذي يغمر من دخله ويغطيه[1].

ومثل هذا المجاز ورد في قول الله تعالى عن الكافرين: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤] وقوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون:٦٣] وقوله:﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١١].

ومن المجاز قول أبي بكر: (اتق الله بطاعته... ولتخف يداك من دماء المسلمين وبطنُك من أموالهم ولسانُك من أعراضهم)[2].

حيث أسند الخوف إلى اليدين والبطن واللسان، وإنما الذي يخاف صاحبها، ومحل الخوف القلب. وأسنده إلى هذه الأعضاء لأن صاحبها يستعملها فيما حُذِّر منه ووُعِظ فيه؛ فباليد يقتل، وبالبطن يأكل ما أخذ بغير حق، وباللسان يتطاول في أعراض الخلق.

ومن المجاز قول عمر رضي الله عنه: (إن لله عبادًا يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره...)[3]، فعبر عن هجر الباطل بالإماتة؛ مبالغة في الترغيب في هجره والترهيب من نشره وإشاعته. وكذلك عبر عن ذكر الحق بالإحياء؛ مبالغة في الترغيب في نشره والدعوة إليه.

ومن المجاز قوله لأبي موسى رضي الله عنه محذرًا إياه من الحرص على الدنيا: (إياك أن ترتع فيرتع عمالك، فيكون مثلك عند الله مثل البهيمة: نظرت إلى خضرة من الأرض، فرتعت فيها، تبتغي بذلك السِمَن، وإنما حتفها في سمنها)[4]، فعبر عن الحرص على

(١) ينظر: لسان العرب (٢٩/٥، مادة: غمر).

(٢) مواعظ الصحابة (ص٥٤).

(٣) حلية الأولياء (٥٥/١)، ومواعظ الصحابة (ص٧٤).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٩٤/٧، ح٣٤٤٤٨)، وجمهرة رسائل العرب (٢٢٣/١).

الدنيا والانغماس فيها بالرَّتْع، وهو الرعي في الخِصْب، وقد يكون بِشَرَه[١]؛ ولذا أعقبه بتشبيهه بالبهيمة التي أغرتها خضرة المرعى، فأكلت منه حتى شبعت، ثم طمعت فيه، فأقبلت عليه حتى هلكت. وفي هذا التصوير بالمجاز ثم التشبيه مزيد تنفير وترهيب من الحرص على الدنيا، وترغيب في الزهد عنها.

ومن المجازات قولا عثمان رضي الله عنه -وسبق ذكرهما-: (إنَّ الدُّنيا تفنى، والآخرة تبقى، فلا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنَّكم عن الباقية)، (ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة).

فأسند الإبطار والإشغال إلى الدنيا؛ لأنها سبب في بطر الإنسان وانشغاله عن الآخرة. وفي التعبير برميها تشبيه لها بما يرمى من حجر ونحوه، وفي ذلك مزيد تنفير عنها، وحث على التخلص منها ومن غرورها.

ومن مجازات علي رضي الله عنه قوله: (كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا)، فجعل للدنيا والآخرة أبناء؛ تصويرًا لشدة الحرص عليهما والانتماء إليهما.

ومن مجازاته قوله: (إن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشملة البلاء...)[٢]، فجعل الذل ثوبًا، والبلاء شملة يُلبسان؛ تصويرًا لإحاطتهما بمن ترك الجهاد، وتمكنهما منه.

(١) ينظر: لسان العرب (١١٢/٨، مادة: رتع).

(٢) مواعظ الصحابة (ص١٤٨).

الخاتمة

تناول هذا البحث الخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين ﷺ في ثلاثة مباحث: أما الأول فتناول سياقات الخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين ﷺ وأما الثاني فتناول الخصائص الموضوعية للخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين ﷺ وأما الثالث فتناول الخصائص الأسلوبية للخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين ﷺ.

وكان من النتائج التي توصل إليها البحث ما يأتي:

١. مقاصد الخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين ﷺ تدور بين الترغيب والترهيب: ترغيب في عمل الصالحات، وترهيب من عمل السيئات.

٢. تنوعت أجناس الخطاب التي سيقت فيها مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، إلى: الخطبة، والرسالة، والوصية. وقد يكون الغرض من الخطبة أو الرسالة الوعظ، فتكون كلها موعظة. وقد تكون الموعظة بين يدي الغرض منهما، وقد تكون بعد الغرض. ومن الرسائل ما خوطب بها الواحد وهو الغالب، ومنها ما خوطب بها الجمع. وقد تأتي الوصية ابتداء، وقد تأتي عن طلب.

٣. تنوع المخاطَبون بمواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، إلى: جمهور الناس، والولاة، والأولاد، والأصحاب. واختار الخلفاء الراشدون ﷺ،الوصايا التي تناسب المخاطَب بالوعظ.

٤. تنوعت الموضوعات في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، والغالب أن الموعظة في المقام الواحد تعدد فيها الموضوعات، ويقل أن تقتصر على موضوع واحد. وثمة موضوعان تكررا كثيرًا حتى صارا ظاهرتين في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، أيًّا كان مقام الخِطاب والمخاطَب، وهما: التوصية بالتقوى، والتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا.

٥. راعى الخلفاء الراشدون ﷺ، في تخير موضوعاتهم في مواعظهم ما يناسب مقام الخطاب وحال المخاطَب، ومن ذلك: وعظ كلٍّ بما يناسبه، ومراعاة ما يناسب الغرض، والموعظة بما يقتضيه واجب الوقت.

٦. لم تقف مواعظ الخلفاء الراشدين عند نوع من أنواع الخطاب أو المخاطَبين، فتجاوزت خطب الجمعة التي يغلب عليها الموعظة، إلى الخطابات السياسية والإدارية والعسكرية الموجهة إلى الولاة والقادة والسفراء، فتُضمن موعظة في بدئها أو ختامها.

٧. تشيع الجمل الخبرية في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، مقصودًا بها الترغيب والترهيب؛ لتسهم في حمل المخاطَب على الامتثال للمأمور، والانتهاء عن المنهي. وقد تأتي هذه الجمل الخبرية غير مقرونة بأمر أو نهي، لكن يراد بها الحث على الفعل أو الترك. وقد تأتي بين يدي الأمر والنهي تمهيدًا لهما. وقد تأتي بعد الأمر والنهي على وجه التعليل أو الدليل لهما. وقد يأتي الخبر قصة بعد الأمر؛ لتمكين الموعظة في النفس. ومن الظواهر الأسلوبية في الجمل الخبرية: التأكيد. والغالب أن يأتي بإنّ أو أنّ، أو القصر بإنما، وربما بالقسم، وغيره.

٨. برز من الأساليب الإنشائية في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ: الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء.

٩. تكاد لا تخلو موعظة من مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، من أمر أو نهي، سواء كانا بصيغهما الوضعية -وهو الكثير- أم بغير ذلك.

١٠. كثر ورود الاستفهام في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ؛ لما له من تأثير عظيم في إثارة النفس وتنبيهها، وإقناعها، وحملها على المراجعة والرجوع والاتعاظ. وقد تتتابع الاستفهامات لمزيد من التأثير، وتمكين الموعظة في النفوس.

١١. ظهر النداء في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، في استفتاح مواعظهم وربما في أثنائها. وينادى كل مدعو بحسب اسمه أو وصفه. والنداء في مقام الموعظة له أثر في تنبيه المخاطب، واستمالة قلبه، والتأثير عليه، وخصوصًا إذا كان باسم أو وصف محبوب، ومناسب للمقام، ومع تكراره تقوى الاستمالة والتأثير.

١٢. التقابل ظاهرة أسلوبية في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ. وجاء فيها بصور متنوعة، منها: أن يأتي بين المعنى وما يضاده في جملة واحدة أو أكثر، وأن يأتي بين معان متعددة وما يقابلها في جملة أو أكثر، وهذا كثير. وقد تتتابع المتقابلات في الموعظة من أولها إلى آخرها. وقد تكون الموعظة كلها مبنية على التقابل بين حالين.

١٣. يعد تضمين كلام الله ورسوله من الخصائص الأسلوبية الظاهرة في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ. وجاء على وجهي الاقتباس والاستدلال؛ لما لهما من الأثر في تمكين المعنى وتقريره، فإن لآيات القرآن وأقوال الرسول ﷺ من القبول والتأثير لدى المؤمن ما ليس للكلام لو خلا منهما. وربما كانت موعظة الخليفة قائمة على الحديث النبوي.

١٤. جرت في مواعظ الخلفاء الراشدين ﷺ، أساليب البيان، من تشبيه ومجاز وكناية، إلا أن التشبيه والمجاز يكثران في مواعظهم، وخصوصًا في تصوير حال الدنيا وغرورها؛ للتزهيد فيها والحذر منها والإقبال على الآخرة والرغبة فيها.

١٥. لم تخل مواعظ الخلفاء الراشدين من أساليب بديعية لفظية وغيرها، كالسجع والجناس، ولكنها قليلة، ولا تعد خصائص أسلوبية في مواعظهم.

١٦. تؤدي الأساليب البلاغية في الخطاب الوعظي للخلفاء الراشدين عدة وظائف، من أهمها: الوظيفة الدلالية، والوظيفة النفسية، والوظيفة الإقناعية.

وبعد، فإن بلاغة الخطاب الوعظي مجال خصب يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة ليتناول أنواع الخطاب وأجناسه، سواء أكان شفهيًا أم مكتوبًا، نثريًا أم شعريًا، ويمكن أن تقوم دراسات تتناول مواعظ الصحابة ﷺ، عامة، ومواعظ من بعدهم ممن كان له الأثر الحسن في المتلقين، كما تتناول واقع الخطاب الوعظي وتنقده؛ تقويمًا له وتجديدًا.

والله هو ولي التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٢. آثار ابن باديس، جمع: د. عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٣. الأدب المفرد، البخاري، تحقيق: سمير الزهيري، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ.
٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، مجمع الفقة الإسلامي، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.
٥. الاقتباس من القرآن الكريم، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: د.إبتسام الصفار، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٥هـ.
٦. الاقتباس: أنواعه وأحكامه، د. عبد المحسن العسكر، دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
٧. الأم، الإمام الشافعي، تحقيق: د. رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٨. البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.
٩. تاريخ الطبري، ابن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.
١٠. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ.
١١. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٢. تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف، طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة.
١٣. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
١٤. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي السلامة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٥. تفسير القرآن، أبو المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس غنيم، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٦. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، للإمام ابن عبد البر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
١٧. تهذيب اللغة، للأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والنشر.
١٨. جامع العلوم والحكم، لابن رجب، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.
١٩. جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ.
٢٠. جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت.
٢١. حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين الحلبي، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م.
٢٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢٣. الخطاب الدعوي في سورة نوح عليه السلام، يوسف العليوي، مجلة الدراسات الدعوية، إصدار الجمعية العلمية السعودية للدراسات الدعوية، الرياض، العدد السابع، محرم ١٤٣٧هـ.
٢٤. الخطب والمواعظ، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى.
٢٥. ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ.
٢٦. ديوان لبيد بن ربيعة، عناية: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.
٢٧. رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، يوسف العليوي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.
٢٨. الزهد، أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ.
٢٩. سنن أبي داود، تحقيق عزت الدعاس وعادل السيد، دار الحديث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.
٣٠. سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.
٣١. شرح صحيح مسلم، للنووي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٣٢. شروح التلخيص، دار السرور، بيروت.
٣٣. الجامع لشعب الإيمان، البيهقي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٣٤. الصحاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩م.
٣٥. صحيح البخاري، للإمام البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.
٣٦. صحيح سنن أبي داود، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٣٧. صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، عناية: نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.
٣٨. العقد الفريد، ابن عبدربه الأندلسي، تحقيق: د. عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٣٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٠. العين، الخليل بن أحمد، تحقيق: المخزومي والسامرائي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م.
٤١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، تحقيق: عادل عبدالموجود وآخرين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٤٢. كنز العمال في سنن الأقوال والأعمال، علاء الدين المتقي الهندي، ضبط وتصحيح: بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٥هـ.
٤٣. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت.
٤٤. المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٤٥. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد للمصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ.
٤٦. المجموع شرح المهذب، النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي.
٤٧. المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده- تحقيق: مصطفى السقا وآخرين- نشر معهد المخطوطات العربية بالقاهرة- الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.
٤٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، إشراف:

د.عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦-١٤٢١هـ.
٤٩. مصنف ابن أبي شيبة (الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار)، ضبط: كمال يوسف الحوت، دار التاج، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٥٠. معجم المصطلحات البلاغية، الدكتور أحمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ.
٥١. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر.
٥٢. المغني، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.
٥٣. مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٥٤. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٥٥. مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، للدكتور حامد صالح الربيعي، نشر معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ.
٥٦. مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٥٧. مقدمة التفسير، جمال الدين ابن النقيب، تحقيق: زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٥٨. مواعظ الصحابة رضي الله عنهم، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٧هـ.
٥٩. نثر الدر في المحاضرات، أبو سعد الآبي، تحقيق: خالد محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
٦٠. النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد سلام، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
٦١. وصايا الأنبياء والسلف ومواعظهم، جمع وتوثيق: عبدالرحمن الجميزي، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.